قهوة باليورانيوم

قهوة باليورانيوم

تأليف :
د.أحمد خالد توفيق

تصميم الغلاف:
أحمد مراد

رقم الإيداع: 2017/9063
الترقيم الدولي: 978-977-820-021-8

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع
٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم
هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772
هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794
بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com
الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذنٍ كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

قهوة باليورانيوم

د.أحمد خالد توفيق

أين ذهب الجميع؟

المنطقة ٥١.. مخلوق روزويل.. دوائر المحاصيل.. الاختطاف.. الأطباق الطائرة.. مسدسات الليزر..

هذه هي مفردات ثقافة الفضاء التي يحملها كل منا في عقله منذ بداية القرن العشرين تقريبًا، وهي ثقافة صارت مجسدة جدًا وقوية جدًا. عام ١٨٩٨ كتب هـ. ج. ويلز قصته (حرب العوالم) فصار الأمر مفروغًا منه، وصار الناس يرون الكائنات الفضائية في كل مكان. انتشرت مجلات الخيال العلمي وقصص الخيال العلمي، وسادت ثقافة الأطباق الطائرة. سوف يأتون من المريخ بالذات.. سوف يكون لونهم أخضر ولهم ثلاث أعين وهوائي على رأسهم ومسدسات تطلق عصارة خضراء.. إنهم أوغاد يريدون احتلال الأرض لأن مواردنا ما زالت بكرًا بالنسبة لمواردهم..

ظهرت مجلات سوبرمان ومعها صار الكون يعج بالكواكب.. هذا كوكب زوس وهذا كوكب بلغور وهذا كوكب يوتان.. هذا كوكب سكانه غير مرئيين وهذا كوكب سكانه يطيرون.. وهذا كوكب سكانه يتنفسون النوشادر.. الخ.. كل الكائنات الفضائية كانت تراقبنا بجهاز الراصد ولهذا كلهم يجيدون لغتنا (أي لغة؟.. طبعاً هي الإنجليزية).. استكملت أفلام الخيال العلمي المهمة، ثم بدأ كثيرون يلتقطون صورًا لأطباق طائرة، وبدأ الفضائيون يخطفون البعض.. البعض الذين يعودون ليحكوا

عـن أجهـزة غريبـة وحقـن عجيبـة اخترقـت أجسـادهم.. في الوقـت نفسـه راح الفضائيـون يرسـمون دوائـر محاصيـل لا يعـرف أحـد الغـرض منهـا..

فيمـا بعـد اجتاحـت مسلسـلات سـتار تـرك وغيرهـا أذهـان النـاس.. عمليـة غسـيل مـخ دامـت عقـودًا حـتى صـارت الكائنـات الفضائيـة في كل مـكان، ثـم جـاءت أفـلام حـرب الكواكـب.. معهـا صـار كل طفـل يعـرف تاريـخ الامبراطوريـة والقـوة ولـوك سـكاي ووكـر ودارث فيـدر. هـذه شـخصيات واقعيـة أكـثر منـا جميعًـا.

هكـذا ومـع الوقـت كـون البـشر فكـرة عامـة عـن الكائنـات الفضائيـة القادمـة.. في الغالـب سـوف يكونـون أشرارًا وأوغـادًا يريـدون الحـرب.. في حـالات نـادرة يكتشـف الفضائيـون أننـا كوكـب عـدواني فيرحلـون.. هنـاك حـالات نـادرة أخـرى مثـل الكائـن الفضـائي الرقيـق صغـير الحجـم (إي تي) الـذي وجـد نفسـه عـلى أرضنـا فـراح يفـر مذعـورًا وأملـه العـودة لموطنـه.. لكـن دعـني أؤكـد لـك أن إي تي ليـس كالآخريـن.. لا تثـق في أي كائـن فضـائي آخـر فهـم سـفلة.

لـم يكـف العلمـاء عـن النظـر للسـماء بحثًـا عـن هـؤلاء الأوغـاد جيراننـا في الكـون.. أيـن هـم؟.. لا يمكـن أن يكـون الكـون لنـا فقـط.. لكـن أيـن هـم؟.. لمـاذا لا يظهـرون؟.. إنهـا وقاحـة.. عندمـا تتوقـع قـدوم ضيـف وتنتظـر فـلا يحـضر.. هـذه قلـة تهذيـب لا شـك فيهـا..

صـوب العلمـاء مكـبرات الصـوت للمجـرة يبحثـون عـن أصـوات، وهنـاك قصـة كاملـة لـكارل سـاجان عـن هـذا.. إنـه برنامـج SETI

الشـهير الـذي يبحـث في نهـم عـن ذكاء خـارج الأرض. وازداد الفضائيـون عنفًـا في أفـلام هوليـوود، وقـد رأينـا الطبـق الطائـر يحـرق البيـت الأبيـض بالكامـل في فيلـم (يـوم الاسـتقلال).

مع الوقت بدأ الناس يقلقون لهذا التأخير..

النـاس تحلـم بكائنـات فضائيـة شريـرة تـأتي مـن المريـخ وتدمـر كوكبنـا وتحتلـه.. منـذ مئـة عـام يداعبـون هـذا الحلـم ويداعبهـم وينتظرونـه، واليـوم بـدا واضحًـا أن هـذا الحلـم كلام فـارغ.. لسـان حـال النـاس يقـول: لمـاذا لا يفعـل الفضائيـون هـذا كلـه؟.. يـا لهـم مـن كسـالى..!

هكذا فتح أحد العلماء فمه في حذر وقال:

ـ«هنـاك احتمـال قـوي أننـا وحيـدون في الكـون.. وأنـه لا توجـد كائـن...».

هنـا هـوى أحـد النـاس عـلى رأسـه بزجاجـة، بينمـا دس آخـر حـذاءه في فمـه، ووجـه ثالـث ركلـة لبطنـه.. لا يمكـن أن يكـون المـرء بهـذه القسـوة ويـنزع مـن النـاس حلمهـم.. أن تقـول إنـه لا توجـد كائنـات فضائيـة اليـوم يشـبه أن تنكـر معلومًـا مـن صحيـح الديـن كمـا يبـدو.

هنـاك فريـق علمـاء يـرى أن فـرص اللقـاء عاليـة جـدًا وسـوف تحـدث حتمًـا، ومـن هـؤلاء العالـم البريطـاني العظيـم المشـلول (سـتيفن هوكنـج). هـذا رجـل عبقـري وكلامـه لا يسـتهان بـه.. وهـو يـرى أن اللقـاء سـيكون مثـل لقـاء كولومبـوس بالهنـود الحمـر أول مـرة.. طبعًـا نحـن سـنكون الهنـود في هـذا اللقـاء، وسـوف نُبـاد عـن

بكـرة أبينـا. لهـذا ينصحنـا بعـدم إرسـال إشـارات للفضـاء لأن هـذا سـيغري الفضائيـين بنـا. أبقـوا رءوسـكم خفيضـة وصلّـوا..

هنـاك فريـق آخـر يـرى أن فـرص اللقـاء عاليـة، لكنهـا سـوف تكـون مـع كائنـات وحيـدة الخليـة أو بـلا خليـة أصـلاً.. أي أن أول لقـاء مرتقـب سـيكون – عـدم المؤاخـذة – مـع فـيروس أو بكتريـا.. صـورة محبطـة، لكـن هنـاك مـن زعمـوا أن فـيروس الإيـدز يمثـل اللقـاء الأول فعـلاً..

فريـق مـن العلمـاء يـرى أننـا وحيـدون في الكـون فعـلاً ولا يوجـد سـكان للكواكـب الأخـرى. طبعًـا هـذا رأيي منـذ زمـن بعيـد، وقبـل أن تتهمـني بالحمـق وحـدي أرجـو أن تقـرأ آراء بعـض العلمـاء المهمـين في هـذا الصـدد، وعـلى فكـرة اعتمـدت في هـذا عـلى كتـاب سـوفييتي عـن الفضـاء، مـع مقـالات في مجلـة بريطانيـة، مـع القليـل مـن ويكيبديـا..

مـن أصحـاب الـرأي القائـل بأنـه لا يوجـد شيء، أسـتاذ الفلـك في هارفـارد (هـوارد سـميث)، وهـو يـرى أن كواكـب كل الأنظمـة الشمسـية الـتي تـم رصدهـا قريبـة جـدًا أو بعيـدة جـدًا عـن شموسـها. هـذا يلغـي احتمـال وجـود حيـاة.. حيـاة سـوف تحـترق أو تتجمـد..

المشـكلة قديمـة، وقـد ناقشـها عالـم الطبيعـة الشـهير إنريكـو فيرمـي. لهـذا يطلـق العلمـاء عـلى القضيـة اسـم (تناقـض فيرمـي).. الشـمس نجـم صغـير ومثلهـا بلايـين في الفضـاء.. هنـاك 80 بليـون مجـرة في الكـون.. بالتأكيـد حـول هـذه الشـموس كواكـب لابـد أنهـا مـرت بظـروف الأرض.. وبالتأكيـد اسـتطاع بعـض سـكان

هـذه الكواكـب السـفر عـبر الفضـاء بأسـاليب تفـوق خيالنـا. إذن كان يجـب أن نجـد سـكان الفضـاء حولنـا ولـو مـرة.. لهـذا تسـاءل فيرمـي: «أيـن ذهـب الجميـع؟».

هذا السؤال المفجع ظل يتردد منذ عام 1950 حتى اليوم...

معادلـة دريـك الـتي يعـود عمرهـا لعـام 1961 تحـاول حسـاب عـدد الحضـارات المتقدمـة في مجرتنـا. لـن أشرح المعادلـة لأنهـا معقـدة.. لكـن مـن الواضـح أنهـا تعطينـا رقمًـا عاليًـا جـدًا.. إذن أيـن هـم؟ الاحتمـال الأول انـه لا توجـد حضـارات أصـلاً.. الاحتمال الثـاني أن هنـاك حضـارات تقدمـت جـدًا لدرجـة تدمـير نفسـها (وكارل سـاجان يؤمـن بهـذا)..

أحـد العلمـاء قـال ببسـاطة إنـه لا توجـد كائنـات فضائيـة.. والدليـل؟.. لأنهـم لـو كانـوا موجوديـن لكانـوا هنـا بالفعـل في هـذه اللحظـة!.. دعـك مـن أن موجـات الراديـو تعـبر الفضـاء بانتظـام منـذ مئـة عـام.. هنـاك حـول الأرض نطـاق مـن الموجـات الكهرومغناطيسـية سـمكه 200 عـام ضـوئي.. لابـد أن أي حضـارة قـد توصلـت لصنـع موجـات الراديـو الخاصـة بهـا.. وهنـاك في مجرتنـا حضـارات عمرهـا عـشرة بلايـين سـنة. معـنى هـذا أننـا كنـا سنسـبح في الموجـات الكهرومغناطيسـية القادمـة مـن حضـارات أخـرى.. كنـا سـنجلس مسـاء لنشـاهد مسلسـلاتهم العاطفيـة بـدلاً مـن المسلسـلات التركيـة..

غـزو المجـرة كلهـا بالنسـبة لحضـارات كهـذه يحتـاج لخمسـة ملايـين سـنة.. وهـذا شيء بسـيط بالنسـبة لعمـر المجـرة كلهـا. إذن أيـن هـم الآن؟

هناك عدة نظريات تحاول تفسير تناقض فيرمي الغريب..

بعض العلماء يرون أنه ربما كانت هناك كائنات فضائية لكنها لم تتقدم علميًا لدرجة الاتصال بنا. هناك من يعتنق نظرية حديقة الحيوان.. أي أن هذه الكائنات ترانا وتراقبنا لكنها لا تتدخل في شئوننا وتترك لنا فرصة التطور والنمو كاملة.. أي أننا كالقردة في قفص نمارس حريتنا تحت عيون لا تنام.

هناك من يرون – كما قلنا - أن هذه الحضارات العظيمة قد دمرت نفسها في النهاية.. وهو المصير السعيد الذي ينتظر حضارتنا لو نشبت حرب نووية أو تزايد التلوث. هذه الصورة حفرت في أذهان الناس مع صورة انفجار كوكب كريبتون الذي ولد فيه سوبرمان.. أي أنه كانت هناك حضارات لكننا اليوم وحيدون.

ثمة رأي آخر هو أن الكوارث الطبيعية تدمر الحياة في النهاية.. لقد شهدت الأرض فناء الديناصور بطريقة مماثلة، وهذا يحدث في الكون كله بلا توقف.

هل توجد كائنات فضائية لكن الاتصال بها مستحيل؟. ربما هي على موجة أخرى تمامًا أو تستعمل موجات راديو لا نعرفها ولا نستطيع التقاطها، أو هي غير راغبة في الاتصال بنا.. هناك من يرون أن هناك كائنات لكنها لن تصل لنا، والسبب أن السفر أسرع من الضوء مستحيل.. أي أن وصولها لنا مستحيل.

من الممكن ان يكون البشر لم يبحثوا في الفضاء بما يكفي.. إن التنصت على أصوات الفضاء بدأ فقط عام 1936، ولهذا قد يجدون شيئًا عما قريب.

ثمة احتمال أن يكون سكان الفضاء غرباء جدًا أكثر مما توقعنا.. ربما هم أقرب للأميبا أو الأطياف.. ربما يتكلمون ببطء شديد فيبدو كلامهم ضوضاء.

هناك نظرية المؤامرة المحببة لدى المواطن الأمريكي: «هم لا يخبروننا بما يعرفون». وهذا يعني أن الحكومة الأمريكية تلقت إشارات فضائية وربما التقت بفضائيين لكنها تخفي ذلك، وهو تقريبًا الموضوع الدائم لحلقات ملفات إكس، وسر اهتمام المواطن الأمريكي بالمنطقة 51.. وهناك نظرية (إنهم بيننا فعلاً لكننا لا نعرفهم) وهي نظرية مخيفة تناسب أفلام (رجال بثياب سود) و(خاطفو الأجساد)... الخ.. أنا شخصيًا مستعد أن أعد لك عشرين شخصًا في مصر أشك في أنهم كائنات فضائية. بل إن هذه النظرية تحاول تفسير نشأة الأديان على أنها لقاءات مع كائنات فضائية اعتقد القدماء أنها قوى علوية وملائكة..

الاحتمال الأخير لتفسير تناقض فيرمي، والذي أميل له شخصيًا هو (نظرية الأرض الفريدة).. لا توجد حضارات أخرى.. نحن وحيدون تمامًا. ظروف الأرض كانت استثنائية وأدت لنشأة الحياة والحضارة وهذا يصعب أن يتكرر أو لم يتكرر قط...

تخيل الحياة من دون كائنات فضائية ولا أطباق طائرة.. لكم تغدو مملة.. وحدة مؤسية جدًا..

هذه فكرة قاسية لكني أراها خطوة مهمة للنضج البشري. منذ مئة عام كان العالم يتحدث عن الجنيّات ذوات الأجنحة.. وكتب أديب مهم مثل أرثر كونان دويل كتابًا اسمه (قدوم

الجنيـات) تكلـم فيـه عـن خواصهـا وعاداتهـا، وتمـنى كل النـاس أن يتحقـق هـذا الـكلام.. اليـوم نعـرف أنـه كلام فـارغ.. كان هـذا قاسـيًا وقـد أحبـط أحـلام كثيريـن، لكـن علينـا أن نعـترف بـأن معظـم صـور الأطبـاق الطائـرة الـتي لدينـا إمـا مزيفـة عمـدًا أو هـي خطـأ ضـوئي حـدث بسـوء نيـة. ولنتذكـر أن فيلـم تشريـح الكائـن في روزيـل ملفـق واعـترف صانعـوه بذلـك..

لقـد أقنعـت نفسي منـذ زمـن أنـه لا توجـد كائنـات عـلى كواكـب أخـرى وأننـا وحيـدون معزولـون تمامًـا.. هـذا يريحـني وقـد بنيـت حيـاتي عـلى هـذا وكففـت عـن قـراءة الأخبـار السـخيفة عـن دوائـر المحاصيـل واختطـاف الفتيـات إلى المريـخ، وظهـور طبـق طائـر فـوق أسـبانيا. أؤمـن أن البشريـة تقدمـت وهـذا سـوف يجعلهـا تلقـي بقصـص الأطفـال الـتي تزيـن أغلفتهـا رسـوم أطبـاق طائـرة مـن النافـذة وتتفـرغ لشـأنها الخـاص. فقـط لـو نـزل طبـق طائـر في شـارعنا وخـرج منـه رجـال خـضر لهـم هـوائي واختطفـوني لكوكبهـم، عندهـا سـأعرف أنـني كنـت مخطئًـا لكـن عـلى الأقـل لـن أكـون هنـا لأعتـذر!

رمضان جانا

لهـذا الشـهر رائحـة، ولهـذا الشـهر صوت.. وله شـخصية كاسـحة حفـرت الذكريـات لـدى كل واحـد منـا. لـو لـم يكـن لديـك فيـض مـن الذكريـات يتعلـق برمضـان فأنـت عـلى الأرجـح لسـت مصريًـا..

لرمضـان صـوت. لا شـك في هـذا، وأنـا أضـع عـلى رأس قائمـة الأصـوات صـوت الشـيخ محمـد رفعـت الرهيـب المزلـزل، القـادم مـن عوالـم يعرفهـا هـو وحـده، والـذي تقشـعر لسـماعه وتنتعش. بعـد هـذا يـأتي صـوت تواشـيح النقشـبندي.. هـذه تواشـيح قـد اسـتطاعت أن تكـون هـي صـوت رمضـان بجـدارة، وكل مـصري يعـرف الجـو الـذي تبعثـه كلمـات مثـل (يقـول أمـتي. يا رب أمـتي).. أو صـوت تواشـيح مـا قبـل صـلاة الفجـر، مـع صـوت مـن يقـول بصـوت عـال ممطـوط: اللهـم صـل عـلى حـضرة النـبي ي ي ي.

يمكـن بـشيء مـن التحفـظ أن تضيـف أصواتًـا أخـرى: في طفولـتي كان هنـاك ارتبـاط خـاص بصـوت القـلي أو التحمـير القـادم مـن المطبـخ والمرتبـط بأمـي. الأم المصريـة المعتـادة تقـف في الحـر وسـط الأبخـرة الخانقـة، كأنهـا هكتـور في حـرب طـرواده. وكانـت تعـترف لي كثـيرًا انهـا تتلـذذ جـدًا بهـذا الشـعور: أبناؤهـا صائمـون ونائمـون بانتظـار المدفـع بينمـا هـي تحـارب في المطبـخ وحدهـا. ثـم المدفـع الـذي كان يـرج البنايـة رجًـا مـع صـوت الجنـدي (الحمـش) الـذي يحسـب أنـه يحـرر القـدس شـخصيًا.. لمـاذا لـم تعـد البنايـات ترتـج بصـوت المدفـع؟.. صـوت ثـلاثي

أضـواء المـسرح قادمًـا مـن التلفزيـون يـردد (بايـم بايـم) الـتي لـم أفهـم معناهـا حـتى اليـوم، ثـم أغنيـة حزينـة لشـادية في الراديـو تبـكي عـلى النصيـب والنـاس المجاريـح، وشـويكار تمـط الألفـاظ وتعابثهـا بشـكل يجعـل وجـه أبي يحتقـن غيظًـا وهـو يرشـف الحسـاء، ثـم جـاء صـوت نيلـلي ثـم صـوت شريهـان، ثـم شـعر النـاس في لحظـة أنهـا لعبـة سـخيفة وفقـدوا اهتمامهـم. عـلى أننـا نلاحـظ أن فوازيـر ثـلاثي أضـواء المـسرح كانـت سـاذجة جـدًا، ومـن الواضـح أن معظـم الحـوار كان يرتجـل سـاعة التصويـر، فقـيرة الإمكانيـات لحـد لا يصـدق، وكانـت جوائزهـا مـن نوعيـة سـاعة اليـد والدراجـة، وحلولهـا كانـت صعبـة جـدًا (أذكـر فـزورة تـدور حـول هـروب روذرفـورد للولايـات المتحـدة وفـزورة حـول لقـاء هانيبـال بسـكيبيو الأفريقـي!). مـع الوقـت صـارت الفـزورة أكـثر شـياكة وصـارت حلولهـا في غايـة الهيافـة عـلى غـرار (مـا هـو الـشيء الـذي يحـرق ونطبـخ عليـه طعامنـا؟). وصـارت الجوائـز لا تقـل عـن أطنـان ذهـب وشـقق كاملـة التجهـيز.. لقـد ازدادت الأشـياء أناقـة وتفاهـة معًـا بمـرور الوقـت. صـار المظهـر أهـم شيء في الكـون.

لـن أنـسى رمضـان الـذي توقفـت فيـه فوازيـر ثـلاثي أضـواء المـسرح في اليـوم العـاشر، لأننـا عرفنـا لـدى عودتنـا مـن المدرسـة أن الجيـش المـصري عـبر قنـاة السـويس. وقضينـا الليـل نفكـر في هـؤلاء الأبطـال الذيـن يحاربـون في صحـراء سـيناء في هـذه اللحظـات بالـذات تاركـين أهلهـم يذوبـون قلقًـا عليهـم، وعنـد الفجـر راح البيـت يرتـج.. لكنـه ليـس ارتجـاج مدفـع الإفطـار بـل ارتجـاج المدفعيـة المضـادة للطائـرات في مطـار محلـة مرحـوم القريـب. رائحـة البـارود تمـتزج بهـواء الفجـر النقـي وتتسـلل

لأنوفنـا فتتقلـص أحشـاؤنا..

مـن ضمـن اصـوات رمضـان المهمـة جـدًا صـوت زوزو نبيـل تقـول وهـي تتثـاءب: (مـولاي) في ألـف ليلة مع موسـيقا كورسـاكوف السـاحرة. يمكـن القـول بـلا مبالغـة إن كورسـاكوف صنـع جـزءًا حميمًـا مـن تراثنـا.

أمـا عـن رائحـة رمضـان فحـدث بـلا توقـف.. رائحـة مـصر ذاتها.. رائحـة الأحيـاء الشـعبية وماء الـورد الـذي يـذوب في المـاء المثلـج ويقـدم للمصلـين في المسـاجد بعـد الصـلاة.. رائحـة الكنافـة والقطائـف وهمـا في مرحلـة العجـين الأولى. ثـم السـحور الـذي تقـاوم فيـه النعـاس بالقـوة، يختلـط برائحـة الشـمع الذائـب في فانـوس جميـل مـن الصفيـح صنعـه عـم شـحتة أو عـم بيومـي في زقـاق مـا مـن (درب الأتـر).

«أكل حـتى الفجـر.. نـوم حـتى الظهـر.. خنـاق حـتى العـصر.. ترقـب حـتى المغـرب».. هكـذا وصـف السـاخر العبقـري محمـد عفيفـي صيـام أغلـب النـاس، وهـي مقولـة مـا زالـت قـادرة عـلى جعـلي أبتسـم..

قلـت في مقـال قديـم إنـني عشـت رمضـان في مختلـف الفـترات.. رمضـان في يوليـو وأنـا أعمـل في تلـك القريـة المجاورة لكفـر الزيات، عندمـا تركـب أربـع مواصـلات يوميًـا وتعـود لـدارك منهـكًا ليسـت في جسـدك قطـرة مـاء واحـدة.. تنـام كالقتيـل وتصحـو لتكتشـف أن ثـلاث سـاعات مـا زالـت تفصلـك عـن كـوب المـاء المثلـج لأن موعـد المغـرب هـو الثامنـة مساء! لـم أعـرف أنـني سـأعيش حـتى تـدور العجلـة مـن جديـد، لكـن عـلى الأقـل لا أضطـر للسـفر في

الحـر! في ذلـك الوقـت كنـت أعتقـد أنـه عندمـا يـدور رمضـان دورتـه مـن جديـد سـأكون نسـيًا منسـيًا.

إغـراء شـديد يدفعـني لأن أقـول إن رمضـان لم يعد هـو رمضان. يبـدو أن هـذه غريـزة قويـة عنـد البـشر تشـبه الطعـام والجنـس.. أن تجلـس لتنـدب ضيـاع المـاضي الـذي كان رائعًـا دائمًـا. نغمـة (لـم تعـد الأمـور كمـا كانـت) شـهية جـدًا. سـأقاوم بصعوبـة ألا أغرقـك في تفاصيـل كهـذه.. حـتى المقـالات مـن طـراز مقـالي هـذا (كنـا نفعـل كـذا وكـذا في رمضـان.. كان أبي يفعـل كـذا.. لـم يعـد لـشيء ذات المـذاق.. الـخ).. حـتى هـذه المقـالات صـارت تثـير سـأمك لأنـك قرأتهـا ألـف مـرة مـن قبـل..

لقـد امتـد بـك العمـر لـترى فوانيـس رمضـان العجيبـة الـتي تعمـل بالكهربـاء والقادمـة مـن الصـين.. ظهـرت فوانيـس عـلى شـكل بـاربي وتغـني (العنـب العنـب)!.. ثم ظهـر المفتـش كرومبو.. هـذا العـام بـدأ سـبونج بـوب يظهـر في كل مـكان. هنـاك (عـك) غـير عـادي في هـذا، فالخلـط بـين شـخصية كارتـون غربيـة وأثـر فاطمـي موغـل في عراقتـه أمـر مشـين. يجـب أن يكـون الفانـوس مـن صفيـح سـيئ اللحـام يتفـكك بسـهولة، وعليـه زجـاج ملـون، ويشـتعل بشـمعة.. ويحـرق يـدك الصغـيرة. غـير هـذا سـخف..

رأيـت بوجـي وطمطـم في رمضـان ورأيـت فوازيـر شريهـان وكل حيـل الكامـيرا الخفيـة الـتي تهـدر كرامـة المـرء وتسـتفزه وتثـير جنونـه مـن أجـل ضحكـة بلهـاء.. ثـم رأيـت رمضـان مـن دون فوازيـر خالـص (ولعـل هـذا أفضـل شيء جديـد).. ثـم رأيـت رمضـان مـن دون تلفزيـون مـصري أصـلاً لأن النـاس هربـت إلى الفضائيـات منـذ بـدأ عـصر الريـادة..

ازدادت الطوابير أمام باعة الكنافة والقطائف وإن تضاعف الذعر في الوجوه والرعشة.. كأن كل واحد يخشى أن يفوته شيء سوف يظفر به الآخرون.. ولا شك أن الناس كذلك صاروا أكثر شراسة وعدوانية، ولعلها أخلاق الزحام. أخلاق الزحام تجعلك تشعر بقلق متزايد من أن رغيفك ليس مضموناً وهناك من سيخطفه في أي لحظة. وقد لاحظ أحد الصحفيين أن كثيرين يفطرون قبل الآذان في موائد الرحمن، لأنهم يفتكون باللحم بمجرد جلوسهم!.. لو انتظروا الآذان فلربما اختطف شخص آخر اللحم!

في التلفزيون، إعلانات السمن هي هي.. إعلانات الشاي هي هي.. في زمني كان إعلان الميلامين جامد ومتين له شجن وسحر خاص، وبعده كان إعلان (شهادات الاستثمار. الفايدة متزايدة)... مع الوقت أصابنا الذهول عندما رأينا إعلانات عن اختراع اسمه التلفزيون الملون. لسبب ما كانت إعلانات التلفزيونات تكثر في رمضان كأنها تحركك لشراء تلفزيون قبل آذان المغرب. وكانت هناك سلسلة إعلانات الفنان حسن عابدين الشهيرة: يا ترى ما هو سر (.....)؟ الآن تسللت إعلانات خطوط الموبايل..

نفس الجلسات لنفس الفنانين ونفس المقالب.. عندما أرى هذه الجلسات أشعر بأنهم يقولون لنا: «هكذا يتكلم أسيادكم وهكذا يمزحون.. هذا هو الشيء الوحيد الجدير بالمشاهدة يا اولاد الفقرية».

المسلسلات فقدت مذاقها القديم.. حاولت أن أتابع بعضها فلم أقدر. كانت الكثرة تغلب الشجاعة لكنها اليوم تغلب

التميز. مستحيل أن تتابع ٩٨٨٩٧٩٨ مسلسلاً كل يوم، وتحتفظ بسلامة عقلك وتوازنك النفسي.. قائد الفرس يحاول الفوز بالأسيرة العربية الحسناء لنفسه.. ثم المسلسل التالي حيث يسرا تكتشف مؤامرة للتجارة بأطفال الشوارع.. المسلسل الثالث والأب يكتشف أن ابنته تقابل (عادل).. المسلسل الرابع حيث يقرر المطاريد الصعايدة أن يخضعوا لـ (حمدان) صاحب أكبر شارب فيهم.. المسلسل الخامس حيث يكتشف الباشا أن الصحفي الذي يهاجمه في مقالاته هو (إبراهيم)..

في نهاية رمضان تكون أحداث المسلسلات قد تداخلت تمامًا.. قائد البيزنطيين ينتظر عودة البنت (هالة) من الكلية لأنه يعتقد أنها تزوجت عرفيًا من زعيم المطاريد. سيف الدين قطز غاضب جدًا لأن المستند المهم قد اختفى وهو يخشى أن يصل للنيابة، وهو يعتقد أن شجرة الدر تتعاطى المخدرات، والباشا يحب منى لكنها تمضي أكثر الوقت في الديسكو..

هناك كذلك تلك الظاهرة التي تفاقمت منذ أعوام : حالة تقمص جان دارك لدى الفنانات الكبيرات، ونفس الكلام الفارغ عن (بنتك اتأخرت في الكلية يا ست هانم) و(المستند ده لو وصل النيابة يا مراد بيه كلنا حنروح ورا الشمس) والفتيات اللاتي يصحون من النوم بكامل مكياجهن، والميزانسين الأبله الذي يصر عليه كل المخرجين والزووم الذي ينقض على وجه كل شخصية وهي تنهض لتأخذ دورها في الكلام، وإضاءة التنعيم على وجه سميرة أحمد وفيفي عبده ونادية الجندي التي تخفي التجاعيد وأي تعبير تمثيلي ممكن، والتمثيل غير

الرديء غير الجيد الذي يفي بالحد الأدنى دون دراسة حقيقية للشخصية.. شخصية ايه؟.. من الواضح أنهم قرءوا عبارات الحوار قبل التصوير بعشر دقائق، ومحمد صبحي الذي يعتقد أنه مصر فلم يعد ينطق إلا بالمواعظ والمُثل وهو ينظر حالمًا في عدسة الكاميرا، كأن الفنان الكبير يجب أن يقول كلامًا كبيرًا وكأن أدوار الشر والخلل النفسي لا تليق به..

تعال نخرج إذن ما دمنا سئمنا التلفزيون..

هناك قطاع من المدينة لا ينام أبدًا ويستهلك كمية أضواء تكفي لإضاءة لاس فيجاس كلها.

ثمة اختراع جديد اسمه الشيشة على المقاهي طيلة ليالي رمضان، واختراع جديد اسمه المرأة التي تدخن الشيشة لأن رجلاً أحمق يعتقد أن هذا مثير جنسيًا، برغم أن هذا المشهد يرتبط في ذهني بالمعلمة (عدلات) بتاعة المدبح فقط..

ما هي المتعة غير العادية في إمضاء ساعة تلو أخرى على المقهى وسط سحب الدخان والضحكات، والغريب أن هذا يمتد حتى صلاة الفجر يوميًا.. وهذا يذكرنا بالعبارة الشهيرة التي بدأت تظهر في الصحف في السبعينيات : «سحور بارتي راقص على أنغام الموسيقا».

مئات الأمثلة تجعلني أتساءل: هل تغير رمضان حقًا وفقد مذاقه القديم الحبيب؟.. أم إنني تغيرت وذبلت براعم تذوقي؟.. ربما كان الاثنان معًا..

على الأقل ما زال الشيخ رفعت والنقشبندي بصوتيهما

الأثيريـين القادمـين مـن عالـم آخـر.. مـا زالا في مذياعـي وأرجـو ألا يقـرر أحـد إلغاءهمـا يومًـا مـا عـلى سـبيل التجديـد.. مـا زال صوتـا عبـد العزيـز محمـود وعبـد المطلـب يقـولان : مرحـب شـهر الصـوم مرحـب.. ورمضـان جانـا. عندهـا فقـط أتصالـح مـع الطفـل في داخـلي وأبتسـم.

حارس البوابة

نسرين كانت فاتنة الدفعة وحلمها. أنفاسها فراشات تتراقص في ضوء القمر الشاحب. كلماتها قطرات من العطر تنسكب على روحك. عيناها نافذتان ترى من خلالهما لمحة عن الجنة. خطواتها زحف الربيع وسط أراض غمرها الثلج في أصقاع سيبيريا.. عندما ينتهي الزحف سيكون السوسن والنرجس والتيوليب قد ملأ الممرات كلها، وسوف تخرج الغزلان تتواثب.

سل أي ذكر شارد في دفعتنا عن سبب شروده.. أو لا تسل. قل هي نسرين ولسوف تكون مصيبًا في ٩٩٪ من الحالات. لا تسأل أي شابين يتشاجران في دفعتنا عن سبب الشجار.. يتشاجران بسبب نسرين طبعًا، وكل واحد يتنطع زاعمًا أنها نظرت له وابتسمت..

عندما ترى هذا الفتى المجد ذا النظارة السميكة منهمكًا في تبييض المحاضرات، والعرق يسيل على جبينه، وهو يستعمل القلمين الأخضر والأحمر.. فلا تتعب نفسك.. إنه يبيض المحاضرات من أجل نسرين. سوف يناولها كراس المحاضرات دون ان ينظر في عينيها ويفر... على الأرجح ستكون هناك قصيدة كتبها في آخر صفحة يشرح فيها كم أنه مولع بغزال غنوج لا يكف عن الفرار وسط الأحراش..

سـوف يـشرح الأسـتاذ محاضرتـه ثـم يتوقـف في لحظـة بعينهـا. هـذا بالطبـع عندمـا تقـع عينـاه عـلى نسريـن الجالسـة في أول صـف. سـوف يتلجلـج وتتـوه منـه الأفـكار. بعـد المحـاضرة سـوف يناديهـا ويعـرض عليهـا خدماتـه.. إذا عجـزتِ عـن فهـم أي شيء فـلا تـترددي.. تعـالي فـورًا..

يمكـن القـول بـلا مبالغـة إن ٩٠٪ مـن شـباب دفعتنـا يمشـطون شـعورهم أمـام المـرآة ويحلقـون الذقـون بسـبب نسريـن... يمكن القـول إن أي بذلـة أو ربطـة عنـق أو قميـص غـالي الثمـن تـم شراؤه ونسريـن في البـال.

كنـا في كليـة الطـب، لهـذا يمكـن أن أؤكـد لـك أن المـرضى الذيـن نمـر عليهـم في العنابـر يغـدون أفضـل وأصـح.. لكنهـم كذلـك يتظاهـرون بالمـرض أكـثر, ويئنـون حـتى تشـفق عليهـم نسريـن.

فقـط عندمـا تغيـب نسريـن نكتشـف أنهـا شـمس وأن هنـاك نجومًـا لـم نكـن نراهـا.. هنـاك هالـة وهنـاك ليـلى وهنـاك هيـام وهنـاك نجـوى.. إنهـا تحجبهـن جميعًـا بوهجهـا برغـم أنهـن لسـن قبيحـات.

نسرين كانت الأنثى الخالدة..

وكان عماد هو صاحب البوابة.

لـم يكـن واحـد في دفعتنـا يجهـل أيـن بيـت نسريـن، وكنـا نمـر هنـاك بـلا سـبب واضـح. فقـط نتخيـل مـا يوجد خلـف هـذا الباب. بالطبـع ليسـت شـقة عاديـة، بـل هنـاك يقـف العبيـد ضخـام الأجسـاد يصبـون الخمـر والرحيـق في كئـوس مـن أكمـام الأزهـار،

بينما ترقص العذارى حول الطواويس، والنمور الناعسة تراقب هذا كله، والقيان القادمات من أرض بونت يحركن المراوح حول نسرين. وفي الحلبة يصطرع الليل مع النهار أو يصطرع المحيط مع الصحراء لتسلية سيدة الساحرات..

لابد أن هذا كله بالداخل.

اكتشفنا في ذعر أن صاحبنا (عماد) يسكن في ذات البناية!

نهارك اسود!.. أنت تعيش في زانادو شخصيًا؟.. تنام هناك وتأكل هناك؟

كان عماد فتى قصيرًا كثير الصخب والضوضاء، كأنه جرو صغير، وكان مولعًا بالتدخل فيما لا يعنيه. ويحب أن يشعر بالأهمية. اكتسب بالطبع أهمية شديدة جدًا، وقد تصرف الجميع معه باعتباره (هرمز) رسول الأوليمب.. هرمز الذي يذهب إلى آلهة الأوليمب ويتكلم مع زيوس ويمزح مع فينوس، ثم ينزل لنا من جديد.. اعتبرناه كذلك حارس البوابة.. إنه المدخل إلى عالمها..

كنا نلتف حوله في شغف..

أحيانًا كان خمسة منا يتبعونه في كل مكان:

ـ«هل نسرين تأكل مثلنا؟.. هل تنام؟.. هل لها أب وأم؟».

ـ«هل تدخل دورة المياه؟.. هل ترسل ثيابها للكواء؟».

كان هو يتكلم في ثقة. نعم هي تأكل.. هو متأكد من هذا لأنه رآها ذات مرة وفي يدها شطيرة.. هي كذلك تدخل

الحمـام. سـمع صـوت السـيفون ذات مـرة... إن حجرتهـا تقـع فـوق حجرتـه..

ـ«يا نهار اسود!.. يا ابن المحظوظة!».

عرفنا كذلك أنها تحب فيروز وأنها تلعب التنس أحيانًا.

كان أحيانًا يضع ساقًا على ساق ويقول في غرور:

ـ«نسريـن مـسرورة.. راقـت لهـا تلـك المزحـة مـن عصـام أمـس.. عندمـا انزلـق عـلى السـلم وتهشـم رأسـه.. لقـد ضحكـت كثيـرًا..».

نتصايـح.. يـا لـك مـن محظـوظ يـا عصـام!.. صحيـح أنـك في المستشـفى وأن فقـرات عنقـك تهشـمت لكـن نسريـن مـسرورة منـك. وكيـف عرفـت هـذا يـا أخ عمـاد؟.

يقول في ثقة:

ـ«قالت لي هذا بالهاتف.. ظللنا نتكلم نصف ساعة أمس».

هكـذا نسـقط أرضًـا ونتلـوى غيظًـا.. نصـف سـاعة؟.. تتكلـم مـع نسريـن نصـف سـاعة؟. بالهاتـف؟.. هنـاك واحـد مـن الدفعـة اتصـل بهـا في العـاشرة مسـاء. سـمع صوتهـا تقـول (آلـو).. هـذا الفـتى أصيـب ببلـه مغـولي ونـوع مـن الخبـال، ويبـدو أن أهلـه يتصلـون ببريـد أخبـار اليـوم طلبًـا لعلاجـه في الخـارج عـلى نفقـة الدولـة..

كانـت أهميـة عمـاد مطلقـة، وبشـكل مـا كنـا نشـعر أنـه قـادم مـن عالمهـا.. مـن رائحتهـا.. تعرفـون قصـة الجائـع الـذي وقـف خـارج مطعـم كبـاب يلتهـم رغيفًـا مـن الخـبز. السـبب أن

الرائحة كانت تكفيه..

حتى جاء اليوم الذي لم يتوقعه أحد قط. لقد لعبت نسرين التنس فسقطت أرضًا وكسرت رجلها..

بالطبع أطلق الجميع الآهات. البعض يبالغ طبعًا فلا تصغوا لذلك السخيف الذي يقترح أن يصير اليوم يوم حداد قومي.. فقط كان على الجميع مواجهة حقيقة أنها لن تجيء لفترة لا بأس بها. سوف تتحول الكلية اللعينة إلى قفر تنعق فيه الغربان.. نظرنا لزميلاتنا فشعر بعضنا بأنهن لم يكن قبيحات لهذا الحد، أما البعض الآخر فشعر بأنهن قبيحات كالأبالسة..

مرت الأيام وعماد يلعب دوره كحارس بوابة النعيم. إنها اليوم أفضل.. اليوم تمشي على عكاز.. كمال.. إنها تريد أن تبيض لها محاضرات وظائف الأعضاء التي لم تحضرها.. لا تطلبوا مني شيئًا أيها الفاشلون فوقتي لا يتسع لشيء.. ألا تريد أن ترسم لها كل صفحات كراس علم الأنسجة يا هاني؟.. لا مشكلة.. سوف أخبرها بذلك.. سوف أقول لها إن هاني يعتذر بشدة لأن وقته أثمن من أن يضيعه في رسم هذا الكراس.. هاني كذلك يقول إنها مهمة شاقة وقذرة، وهو قد رسم الكراس الخاص به بصعوبة..... هه؟.. تقول إنك سترسم؟.. ليكن.. وأنا لن أخبرها بشيء..

هكذا تمضي الأيام..

وفي يوم جاء عماد إلى الكلية فجلس على السور.. عند تلك النافورة الجافة التي تمثل فلاحة مصرية تشوه وجهها. التففنا

حوله كالعادة لكنه اشار إلى ثلاثة منا.. كنت انا منهم..

قال بصوت ثابت جهوري:

ـ«أنتم الثلاثة مهتمون بالأدب وتكتبون القصة القصيرة.. أريد الكلام معكم».

وقفنا أمامه مرتبكين، فقال لنا :

ـ«نسرين رهينة المحبسين كما تعلمون.. محبس الجبس حول ساقها، ومحبس البيت.. تقول إنها تموت سأمًا وطلبت مني أن أجلب لها شيئًا يُقرأ..».

تطوع سامي بأن يحضر لها الإلياذة والأوديسا، أما أنا فوعدت أن أسرق مجموعة نجيب محفوظ كاملة من مكتبة أبي، بينما تطوع حسين بأن يضرب أخاه الصغير في عينه ويسلبه كل مجلدات ميكي التي يملكها..

ـ«لا. لا..».

قالها عماد وأشعل لفافة تبغ.. ثم أردف:

ـ«هي لا تريد أعمالاً احترافية.. هي تريد القراءة لكم.. قلت لها إنكم أدباء عظام وهي طلبت أن تقرأ لكم».

ثم أعطانا مهلة ثلاثة أيام نقدم له فيها ما نختاره من كتاباتنا..

لم ادخل في حياتي أي مسابقة أدبية ولن أفعل، لكن هذه كانت أخطر مسابقة أدبية أدخلها وكان لابد منها. عدت لبيتي

ورحت أنقب في أوراقي.. وجدت قصة معقولة عن شباب حاولوا خطف فتاة ثم أنقذها شاب نحيل ضعيف فوقعت في غرامه. جلست في مكتبي ورحت بخط رائع أبيّض هذه القصة.. أتخيل نسرين وهي تقرأ هذه الفقرة أو تلك.. تبتسم هنا.. ترتجف هناك.. تقشعر هنا.. هناك سطور كتبتها خصيصًا كي تراها. نثرت دعابات كي تضحكها.. سوف تقرأ القصة ثم تغمض عينيها.. ترتجف.. يا الله.. ما هذه الروعة؟.. ثم تفتح الغلاف لتقرأ اسمي. ترفع سماعة الهاتف وتتصل بعماد: لم أكن أعرف أن صديقك بهذا العمق.

عندما تفك الجبس سوف تعود للكلية.. سوف تشق طريقها وسط الزحام ووسط المهنئين. إن عينيها تبحثان عني.. في النهاية تجدني فتتجه نحوي وهي ترتجف.. وبعد ذلك؟ بصراحة لا أعرف.. لندع كل خطوة تحدد الخطوة التالية..

هكذا فرغت من القصة، فوضعتها في ملف أنيق وحملتها لعماد صديقي..

في الوقت نفسه كان حسين يسلم إنتاجه للجنة الامتحانات المكونة من عماد. قال لي في غيظ:

ـ«أنت لن تربح.. لن يروق لها ما تكتبه.. قصصك سخيفة وسطحية. قرأت قصة لك من قبل».

قلت له في ضيق:

ـ«أنت لا تستطيع كتابة سطر واحد من دون تسعة أخطاء لغوية قاتلة».

ـ«نحـن نتكلـم عـن الأدب وليـس هـذا امتحـان اللغـة العربيـة للثانويـة العامـة».

بـدأ عمـاد يتسـلم الأعمـال، بينمـا قضينـا نحـن يومـين مـن الحلـم.. سـوف تبـكي.. سـوف تتصـل بي طالبـة الـزواج.. سـوف تحـدد لي موعـدًا في مركـب نيلي..سـوف تفـر مـن بيـت أهلهـا وتـأتي لبيـتي ليـلاً وتتوسـل لي كي نـتزوج..

في النهاية استدعانا عماد لمناقشة الأعمال..

ذهبنـا لبيتـه غـير مصدقـين أننـا في ذات البنايـة الـتي توجـد بهـا نسريـن، وأن قدميهـا تخطـوان عـلى هـذه الدرجـات عـدة مـرات كل يـوم.. كنـا نتشـمم الهـواء في ذهـول..

لابـد أن هـذه أروع لحظـات عاشـها عمـاد في حياتـه. لسـبب مـا جـاء بصنـدوق مـن الـورق المقـوى مـليء بثمـار اليوسـفي وكان يلبـس جلبابًـا أبيـض، وتربـع عـلى مقعـد في الصالـون وراح يقـشر اليوسـفي في اسـتمتاع.. ثـم بـدأ يشـد شـعر سـاقه وهـو يقـول في غمـوض وخطـورة:

ـ«قرأت الأعمال قبل أن أرسلها لنسرين».

تبادلنـا النظـرات.. حسـبنا أنهـا قـرأت الأعمـال فعـلاً.. تبـين أنـه جعـل مـن نفسـه رقابـة ترشـح مـا يصـل لهـا.. قـال وهـو يـأكل اليوسـفي:

ـ«طبعًـا..في النهايـة سـوف أكـون مسـئولاً عـن أي عمـل خـارج أو بـذيء يصـل لهـا..».

ثم بصق البذور وقال وهو يهرش ساقه المشعرة:

ـ«حسين كتب قصة شبه جنسية عن شاب ينفرد بالخادمة في المطبخ... عمل رقيع فاشل.. ولا أخفي أنني كنت أقرأ وأنا أشعر بخجل شديد.. هذه قصة مرفوضة ببساطة».

ولوح بالورق بطرفي إصبعيه ثم ألقى به جوار حسين.. لقد ألقى كلمته.. لن تمر هذه القصة عبر البوابة أبدًا.. على كل حال وافقته على هذا القرار. هناك هواية معينة لدى الفتيان هي أن يعرضوا وقاحتهم على الفتيات على سبيل طلقات الاختبار. يريدون معرفة إلى أي مدى يمكن أن تتحمل قبل أن تنفجر..

جاء دوري فلوح بقصتي في اشمئزاز:

ـ«خطف ومحاولة اغتصاب.. لن أعلق..».

وسقطت القصة ذات رائحة اليوسفي في حجري، ثم أنه أخرج قصة أخرى:

ـ«قصة سامي جيدة.. هي عن أب فقد ولده.. لكنها غير متماسكة وحبكتها ضعيفة.. لهذا هي مرفوضة».

قال سامي محتجًا:

ـ«ظننت انك تراقب القصص أخلاقيًا ولا دخل لك بالمستوى الفني».

ـ«بالعكس.. المستوى الفني مهم جدًا.. قصصكم مرفوضة ولن أقدم لها اي شيء».

رحنا نرمقه وهو يلتهم اليوسفي وبدأت أفهم لماذا يقتل بعض البشر بعضهم.. هذا سهل جدًا.. الصعب هو أن تقاوم ذلك. أعتقد أن تهشيم عنقه كان أحب المناظر لنا نحن الثلاثة وقتها..

عندما اتجهنا للباب كاسفي البال.. استدرت أسأله في أمل أخير:

ـ«ممكن أن ألغي مشهد الاغتصاب بالكامل..».

ـ«سوف تضعف القصة دراميًا.. لابد من اغتصاب.. لكن لا يمكن أن أرسل لها قصة تتحدث عن الاغتصاب».

نزلنا السلم شاعرين بالمهانة والحيرة والفشل.. فكرت أن أقتل نفسي، ثم وجدت أنه من الأفضل أن أشتري شطيرتين من السجق من عند عواد، مع كوب شاي بالنعناع.. في الصباح سوف أنسى كل شيء.. وهو ما حدث فعلاً!

قصة مرعبة

دعونا نستعد أجواء قصص الرعب فقد تركناه منذ زمن، غير أن هذه القصة حدثت فعلاً بهذه التفاصيل الرهيبة، وإني لأنذرك أنها مخيفة جدًا لا تتحملها أعصاب كثيرين.

كان الأستاذ عبد الظاهر رجلاً محترمًا من مثقفي الستينيات. أنت لا تعرفهم جيدًا ولا تعرف عمن أتكلم، فأقول إنه ينتمي لمجموعة المثقفين الذين سادوا مصر في الستينيات، وأحدثوا الكثير من الحراك الأدبي، وآمنوا بالاشتراكية بشدة.. وبدا لهم أن المستقبل مشرق ساطع، ثم جاءت ضربة قاسية موجعة اسمها هزيمة ١٩٦٧، فتقوقعوا.. وامتلك كل منهم اكتئابه الخاص، ومع الوقت رأوا أحلامهم تضمحل ورأوا كيف انتصر رجال الأعمال وتجار الشنطة، والمسرح الذي كان يقدم مسرحيات يونسكو وسوفوكليس صار يقدم مسرحيات عجيبة تتضمن رجلاً صعيديًا يطارد قزمًا بمسدس، ورجلاً بالثياب الداخلية يتلقى صفعة على قفاه.. الخ..

لقد تغير العالم لكن الأستاذ عبد الظاهر لم يتغير. من أحاطوا به في أيام مجده عرفوا أنه لم يتغير. وكان من الطراز الوقور الذي يشرب الشاي في فنجان ويأكل بالشوكة والسكين، كما أنه لا يذهب لشراء ربع حلاوة من دون أن يحمل معه كتابًا عن (آليات النقد في أدب أمريكا اللاتينية)، والكتاب واضح يراه الجميع.. ويراه البقال فترتجف يده رهبة وهو يقطع

الحـلاوة..

كل الحـي يعـرف أن الأسـتاذ عبـد الظاهـر إنسـان مثقـف وعظيـم، خاصـة وهـو لا يرتـدي إلا البدلـة وربطـة العنـق حـتى لـو كان ذاهبًـا لرتـق حذائـه..

الحياة تزداد سوقية وفجاجة.. كل شيء يتغير.

هنـاك قصـة لسومرسـت مـوم تحـكي عـن دبلومـاسي بريطـاني متحذلـق في جنـوب شرق آسـيا. تكـون الكارثـة في حياتـه هـي أنهـم يرسـلون لـه مسـاعدًا لا يحـترم أي شيء ليعمـل معـه. لا يحـترم أي شيء معناهـا أنـه يقـرأ روايـة بوليسـية وهـو يتنـاول العشـاء، كمـا أنـه يتنـاول العشـاء حـافي القدمـين!.. هـذا بالنسـبة للدبلومـاسي البريطـاني شيء لا يمكـن تحملـه.. النتيجـة هـي أنـه يخطـط لقتـل هـذا المسـتهتر..!

الحقيقـة أن الأسـتاذ عبـد الظاهـر يصلـح جـدًا لهـذه القصـة. والأسـوأ أن ابنـه المراهـق الوغـد لا يكـف عـن تعذيبـه.. ابنـه في التاسـعة عـشر، وهـو يعيـش مراهقتـه بشـدة وحماسـة.. يغـني أشـياء غريبـة جـدًا مثـل (بـوس الـواوا دح..) ومـا هـو أغـرب..

كان الأسـتاذ عبـد الظاهـر يعتـبر سـماع أغـاني فايـزة أحمـد نوعًـا مـن التنـازل، لأذن اعتـادت سـماع أم كلثـوم.. هنـا يأتيـه مـن يغـني عـن الـواوا.. لكـن ابنـه كان سـعيدًا جـدًا وراضيًـا عـن نفسـه وعـن الحيـاة.

الأسـتاذ عبـد الظاهـر أرمـل كمـا هـو واضـح ويعيـش مـع ابنـه في تلـك الشـقة، ومـع الوقـت انتهـت المحادثـات بينهمـا.. كل منهمـا

يحب الآخر بشدة ولا شك في ذلك، لكنهما لا يتبادلان ما يكفي من الكلام.. ربما عشر جمل في الأسبوع أو أقل..

يقوم الأستاذ عبد الظاهر بطهي طعام الغداء.. إنه يستمتع بذلك.. ثم يعد المائدة بطريقة تدل على الرقي بلا شك. يجلس مع ابنه.. يراقبه وهو يأكل كالمسعورين ويمزق اللحم بيده، ثم يرفع سلطانية الحساء ويصبها في حلقه صبًا..

ـ«الحساء لا يشرب إلا بالملعقة».

ـ«بل أفعل مثل اليابانيين.. يشربون من السلطانية ولم يهلكوا أو يدخلوا جهنم بعد».

ثم يتبعها الوغد بـ (شرييييييييييب)..

هكذا تمضي الحياة.. الابن الوغد المستمتع بالحياة والذي يرى أن كل شيء ممتاز. والأب المغتاظ الذي يشعر بالحيرة وبأن الحياة سوقية أكثر من اللازم..

في ذلك اليوم الموعود كان الأستاذ عبد الظاهر وحده في البيت.. ابنه كان في الكلية.. وكان يعنى ببعض أمور الشقة وهو يلبس الفانلة الداخلية مع سروال المنامة. دق جرس الباب فاتجه ليفتح ناسيًا أن يلبس شيئًا..

هنا فوجئ بشيء يثب في أحضانه كأنه قرد مشعر مبلل بالعرق، وانهالت قبلات لزجة على خديه، بينما هناك من يردد وهو يلهث:

ـ«أنت لم تعد تسأل لذا قررت أن آتي لأعرف ما دهاك..

أنـت لـم تعـد تسـأل لـذا قـررت أن آتي لأعـرف مـا دهـاك.. أنـت لـم تعـد تسـأل لـذا.....».

كان عبـد الظاهـر يحـاول فهـم: لمـاذا يـصرخ هـذا الرجـل بـلا توقـف..

أخـيرًا اسـتطاع أن يعـرف مـن هـو. هـذا هـو الحـاج مدكـور. في وقـت مـا كان الأسـتاذ عبـد الظاهـر مديـر شركـة، وكانـت الشركـة تتعامـل مـع تجـار كثيريـن.. ومـن ضمـن هـؤلاء التجـار الحـاج مدكـور. لقـد قـرر أن يعـد مفاجـأة لصديقـه القديـم ويـزوره. ودخـل الحـاج مدكـور البيـت وهـو مـا زال يـردد:

ـ«أنـت لـم تعـد تسـأل لـذا قـررت أن آتي لأعـرف مـا دهـاك.. أنـت لـم تعـد تسـأل لـذا قـررت أن آتي لأعـرف مـا دهـاك.. أنـت لـم تعـد تسـأل لـذا قـررت أن آتي لأعـرف مـا دهـاك».

ثـم بـدأ الرجـلان يسـترجعان الذكريـات وهمـا يشربـان الشـاي الـذي أعـده الأسـتاذ عبـد الظاهـر. إن لهمـا تاريخًـا طويـلاً انتهـى عندمـا خـرج عبـد الظاهـر إلى المعـاش، أمـا الحـاج مدكـور فهـو مـا زال يعمـل وإن لمامًـا.. سـن مدكـور أصغـر بكثـير..

هنـا بـدأ الأسـتاذ عبـد الظاهـر يسـتنتج اللغـز وراء هـذه الزيـارة المفاجئـة. لقـد جـاء الحـاج مدكـور ليسـأل:

ـ«أعـرف أنـك كنـت تسـافر كثيرًا أيـام العمـل.. فهـل أثـر هـذا السـفر عـلى رجولتـك الفـذة؟».

هكذا فهم..

كان كل من تعاملوا مع الشركة يعتبرون عبد الظاهر علامة يعرف كل شيء. والسبب طبعًا أنهم لا يفهمون حرفًا مما يقول. هكذا لاحظ الحاج مدكور أن أداءه كزوج لم يعد على ما يرام، لذا قرر أن يزور عالم العلماء الأستاذ عبد الظاهر.. وهو بهذا لا يعتبره الأكثر علمًا بل كذلك يعتبره الأكثر فحولة.. هذا التقديس شبه الوثني أثار إعجاب عبد الظاهر بنفسه وانتفخت أوداجه..

وضع الأستاذ عبد الظاهر رجلاً على رجل وبدأ يتكلم في وقار.. يتكلم في فخر..

حكى للحاج مدكور كيف أن رجولة الرجل لا تقاس بالأعضاء ولكن تقاس بالطباع الرجولية فقط. حكى له عن أبحاث فيتامين (هـ) والدكتورة أنا أصلان وأطباء رومانيا العباقرة.. حكى له قصصًا غريبة عن قدرات جنسية مذهلة..

كان الحاج مدكور يصغي في انبهار وقد فتح فمه غير مصدق، وكله إيمان مطلق بأطباء رومانيا العباقرة وخصوصًا آنا أصلان..

طال الحديث..

وفي النهاية نظر الحاج مدكور إلى ساعته وأعلن أنه يجب أن ينصرف.. لماذا لا تتناول الغداء معنا يا حاج؟.. لا.. شكرًا.. يجب أن أسافر إلى السنبلاوين اليوم..

واتجه للباب وهو يردد بلا توقف:

ـــ« أنت لم تعد تسأل لذا قررت أن آتي لأعرف ما دهاك..

أنـت لـم تعـد تسـأل لـذا.....».

وعـلى البـاب انحـنى ليلثـم خـدي الأسـتاذ عبـد الظاهـر مـن جديـد. وخـرج عبـد الظاهـر إلى مدخـل البيـت ليودعـه وهـو يهبـط في الـدرج..

ـ«سلامي لرامي الصغير».

قال عبد الظاهر ضاحكًا:

ـ«لم يعد صغيرًا.. واسمه ليس رامي».

ـ«لم يعد رامي؟.. هذا غريب..».

ـ«يا حاج... اسمه علاء منذ ولد..».

اختفـى رأس الحـاج وصوتـه.. هنـا اسـتدار أسـتاذ عبـد الظاهـر ليعـود لشـقته، لكنـه اكتشـف أن البـاب مغلـق!...

حاول أن يدير المقبض عدة مرات.. حاول ان يفكر بعقل..

لا يوجـد مفتـاح.. المفتـاح داخـل الشـقة.. هـذا مـن الأبـواب الـتي تغلـق بكالـون (لاتـش). لابـد أن الهـواء جعـل البـاب ينزلـق. المشـكلة الآن – فكـر بعقـل وهـدوء - هـي أنـه بالفانلـة الداخليـة وسروال البيجامـة وحـافي القدمـين!.. لا يوجـد هاتـف محمـول لأنـه داخـل الشـقة..

الفكـرة جعلتـه يرتجـف.. هـذا جعلـه يـدرك أنـه لا فائـدة مـن العقـل.. لا فائـدة عـلى الإطـلاق. لابـد مـن العـودة للذعـر الأولي الوحـشي. راح يهـز المقبـض ويهـز البـاب مـرارًا بـلا توقـف..

ماذا يفعل؟

المشكلة هي أن الساعة الثانية عشرة ظهرًا.. لن يعود ابنه قبل ساعتين. سيظل واقفًا هنا ويراه الجيران كلهم.. الجيران الذين لم يروه إلا بالبذلة وربطة العنق..

راح يوجه الركلات للباب.. سمع بابًا ينفتح من تحت.. يجب أن يكون حذرًا لأن الضجيج سيجعل الجيران يخرجون..

يمكنه أن يقرع أي باب ويطلب مساعدة لاقتحام الباب.. أو يطلب الاتصال بابنه ليأتي.. لكن لا يمكن أن يتوقع إلا أن يقابل جارة بثياب النوم ذهب زوجها للعمل وأولادها للمدارس، وقد بدأت في تقطيع الكوسة.. ماذا ستقول هذه الجارة وماذا ستفعل عندما يدق الجرس لتجد رجلاً حافي القدمين بالفانلة الداخلية؟.. حتى لو كان في سنه؟

لكن هل يظل واقفًا هكذا؟

سمع صوت خطوات فأدار وجهه للباب وتظاهر بأنه يحاول فتحه، بطرف عينه رأى سيدة شابة يعرف أنها تسكن في الطابق الخامس.. تصعد ببطء وريبة كما هو واضح.. تمر جواره.. تنظر له في شك ثم تواصل الصعود دون أن تبعد عينيها عنه. يا لشدة تدخل المصريين فيما لا يعنيهم!.. من حقه أن يلبس ما يريد فلماذا تعتبر أن من حقها التحرش به؟

بعد لحظات سمع صوت خطوات.. هناك طفل متشرد وغد قادم من أعلى. الطفل يغني ويصفر ثم ينظر له.. يمر بجواره فيبطئ من سرعة التصفير.. ثم يفر تقريبًا..

أيـن ابنـه؟.. أيـن عـلاء هـذا المراهـق المتـشرد؟.. كليـة؟.. أضحكتـني.. هـل يمكـن لوغـد كهـذا أن يذهـب للكليـة أو يعـرف مكانهـا؟.. بالتأكيـد هـو في وكـر قـذر يمـارس الفسـق ويـشرب المحرمـات ويدخـن الممنوعـات، مـع مجموعـة مـن رفقـاء السـوء، ومـع ألعـن عينـة مـن الفتيـات الساقطات.. ثـم يزعـم أنـه كان في الكليـة ويطالـب عبـد الظاهـر الأبلـه بدفـع ثمـن شـهواته.. لقـد ارتفـع ثمـن المذكـرات.. الـخ.. لمـاذا لا يعـود هـذا الخنزيـر؟.. إن يومًـا واحـدًا بـلا خمـر وحشـيش ليـس مسـتحيلاً.. فقـط لينقـذ أبـاه مـن هـذه المذبحـة... إنـه شريـر مثـل أمـه.. ومنحـط مثـل عمـه.. سـوف يدفـع الثمـن..

وفجـأة يلـين مـن جديـد.. ليتـه يعـود.. هـذا الحبيـب.. هـذا الفـتى الوسـيم المنقـذ..

لمـاذا لا يعـود؟.. بالتأكيـد قـد مـات.. يـا حبيـبي يـا بـني.. كـم كنـت رقيقًـا مفعمًـا بالحيـاة..

يشـعر بـبرد رخـام السـلم تحـت قدميـه الحافيتـين، وتؤلمـه قبضتـاه. الشـقة بالداخـل.. الشـقة الجميلـة المنظمـة بمـا فيهـا مـن كتـب.. بمـا فيهـا مـن أطعمـة.. بمـا فيهـا مـن ثيـاب وجهـاز تلفزيـون.. تبـدو لـه الآن مثـل حلـم إسرائيـل بـأرض الميعـاد...

لـن أكـرر نفسـي... هنـاك ألـف جـارة صعـدن السـلم أو هبطنـه. هنـاك ألـف جـار نظـر لـه بشـك أو ألقـى عليـه التحيـة. هنـاك ألف طفـل نظـر لـه في حـيرة. هنـاك قـط مـر بجـواره وراح يرمقـه.

ليـس مـن المعتـاد أن تجـد رجـلاً يقـف أمـام بـاب شـقة ووجهـه للبـاب، وهـو ببنطـال البيجامـة والفانلـة الداخليـة.. خاصـة إذا كان

رجـلاً وقـورًا مسـنًا أشـيب.

لابد أن ستة أعوام قد مرت به وهو في هذا الرعب المقيم..

لا يعـرف مـتى ولا كيـف سـمع خطـوات عـلى السـلم، ثـم سـمع مـن يغـني (بـوس الـواوا دح).. لا يعـرف مـتى شـعر بيـد ابنـه وهـو يسـأله عـن سـبب وقوفـه هنـا:

ـ«الهواء.. المفتاح.. الباب...».

لـم يفهـم الفـتى شـيئًا لكنـه عـلى كل حـال فتـح البـاب بمفتاحـه فدخـل أبـوه.. ووقـف ينظـر للشـقة الـتي حسـب أنـه لـن يراهـا بقيـة حياتـه..

قال الفتى وهو يطوح بحذائيه:

ـ«مـا زلـت لا أفهـم.. لمـاذا وقفـت شـبه عـار أمـام البـاب.. هل شـعرت بملـل لهـذا الحد؟».

لكن الأب لم يرد..

عندمـا دقـق عـلاء النظـر رأى مشـهدًا لـم يـره مـن قبـل قـط.. وحسـب أنـه يهـذي بسـبب نـور الصالـة الخافـت..

كان أبوه المسن يرتجف ويبكي....

أماركورد

أماركـورد هــو عنــوان فيلـم شـهير لفيليـني، وترجمتـه (أنـا أتذكـر). هـذا المقـال ليـس عـن فيلـم فيلليـني، ولكنهـا مجـرد طريقـة لجذبـك بعنـوان غريـب. قـد مـر عـام تقريبًـا عـلى ذلـك اليـوم الـذي أتذكـره كأنـه حلـم. السـبت ٢ إبريـل ٢٠١١.. بعـد أشـهر متواصلـة مـن صعوبـة التنفـس والربـو الـذي لـم أعهـده مـن قبـل. الربـو مـن الأسـباب القويـة الـتي جعلتـني مـن القلائـل الذيـن لـم يذهبـوا لميـدان التحريـر قـط، لأن الغـاز هنـاك أكـثر مـن الهـواء. كنـت منهـكًا بشـكل متواصـل حـتى صرت أحمـل هـم المـشي في الشـقة أو صعـود الـدرج. قللـت التدخـين إلى معـدل غـير مسـبوق ولكـن لـم أر نتيجـة واضحـة.

يـوم ٢ إبريـل عـدت مـن الكليـة مرهقًا..كانـت منـال زوجـتي في المطبـخ تنهـي إعـداد الغـداء. همسـت : ألا يـا عتبـة السـاعة.. أمـوت السـاعة السـاعة. لـم تفهـم مـا أعنيـه فقلـت لهـا إنـه بيـت شـعر لأبي العتاهيـة كان يمقتـه لأنـه ضعيـف المسـتوى. جلسـنا لتنـاول الغـداء.. ثـم.. شـعرت للحظـة بتلـك الضربـات المختلـة مـن قلـبي.. نـوع مـن النغبشـة الكهربيـة الغريبـة.. لا تتوقـف.. قلـت لنفـسي سـوف تتوقـف حـالاً. اصـبر..

(ظلام)

أفتـح عيـني لأجـد دائـرة مـن الوجـوه الباكيـة.. منـال.. محمـد..

مريـم.. كلهـم يتوسـلون لي كي أفتـح عيـني. مـاذا حـدث؟.. لمـاذا أنـا عـلى الأرض؟.. لمـاذا أنـا واهـن هكـذا؟.. هـل نحـن في النهـار أم الليـل؟.. لمـاذا يبكون؟..بـدا لي هـذا سخيفًا.. كمـا أن صديقي د.رائـف وصفـي كان جالسًـا في الصالـة ممـا بـدا لي غريبًـا.. هـو لا يـأتي مـن دون موعـد أبـدًا...

فهمـت ببـطء أن قلـبي توقـف عـن العمـل تمامًـا وسـقطت عـلى الأرض، وقمـت ببعـض التشـنجات اللطيفـة جـدًا. زوجـتي طبيبـة وتعـرف مـا تقـول. أمـا عـن محـاولات محمـد للاتصـال بالإسـعاف فقـد فشـلت تمامًـا كالعـادة، وهكـذا اتصـل بصديقـي رائـف ليتـصرف..

مـا لـم أعرفـه كذلـك هـو أن في ذات اللحظـة تـوفى صديـق عزيـز اسـمه رفعـت فـوزي بنوبـة قلبيـة. كان رائـف عـلى وشـك الاتصـال ليخـبرني بذلـك! مـا معـنى هـذا؟

طلبـوا مـني أن أذهـب للطبيـب لكـني كنـت أعـرف شـيئًا واحـدًا: لـو لـم أنـم الآن لنصـف سـاعة مـع كل هـذا التعـب، فسـوف أمـوت. توسـلوا لي لدرجـة أنهـم تمسـكوا بقدمـي لكـني صحـت: أتوسـل لكـم أن تتركـوني أنـام.. أنتـم تقتلونـني!

ودخلـت إلى الفـراش لأرقـد.. وغبـت عـن العالـم. فقـط كنـت أفتـح عيـني مـن وقـت لآخـر لأجـد أن مريـم ترقـد جـواري ممسـكة بيـدي. لقـد قامـت بعمـل ورديـات مـع محمـد للنـوم بجـواري وإمسـاك يـدي، حـتى لا أنزلـق إلى العالـم الآخـر.

بعـد سـاعة ونصـف نهضـت مـن النـوم فأخـذت (دوش) وجـاء رائـف مـن جديـد بسـيارته ليوصلـني للطبيـب.. الطبيـب هـو

الدكتـور أيمـن السـعيد أسـتاذ أمـراض القلـب بطـب طنطـا، والذي صـار أول عميـد منتخـب بعـد ذلـك. ذهـب رائـف ليبحـث عـن مـكان يركـن فيـه السـيارة، وصعـدت لعيـادة الطبيـب بـلا جهـد سـوى أن سـاقي كانتـا رخوتـين فعـلاً. جلسـت أنتظـر دوري ثـم نـاداني الممـرض لأدخـل.. دخلـت منـال ثـم تبعتهـا وهنـا شـعرت بالنغبشـة الكهربيـة اللعينـة إياهـا، فقلـت لهـا: لقـد عـاد!

(ظلام)

أنـا في سـيارة يقودهـا غربـاء تنهـب شـوارع طنطـا في الظـلام. منـال تجلـس ورائي وتسـند رأسي حـتى لا يقـع، والغريـب أن د. أيمـن السـعيد معـي في السـيارة. يتكلـم في الهاتـف : أريـد مقعـدًا عـلى بـاب القسـم فـورًا. أعـرف أن قلـبي توقـف مـرة أخـرى وسـقطت، وهرعـت منـال صارخـة تقتحـم غرفـة الكشـف.. جـاء الطبيـب ووضـع جهـاز الموجـات الصوتيـة عـلى قلـبي ليكتشـف أنـه رخـو تمامًـا.. هـذا ارتجـاف بطيـني وهـو يختلـف كليًـا عـن الارتجـاف الأذيـني بتـاع حسـني مبـارك (الـذي يدللونـه بارتجـاف أوزوني لسـبب مـا).

ليـس مـن المعتـاد أن يحتفـظ طبيـب القلـب بجهـاز صدمـات كهربيـة في عيادتـه، وليـس مـن المعتـاد أن يكـون الجهـاز مشـحونًا، والأغـرب أن هـذا الجهـاز جـاء للعيـادة منـذ أيـام معـدودة لا أكـثر. المهـم أنـه كان موجـودًا وأنـه وضـع القطبـين عـلى صـدري و... بـوم!... عـاد القلـب ينبـض..

ثـم جـاء دور العثـور عـلى سـيارة.. سـيارة الطبيـب غـير متاحـة الآن ورائـف ليـس هنـا.. النتيجـة أنـه بحـث عـن أي أشـخاص

يقبلـون نقلنـا للمستشـفى، وعندمـا أفقـت كانـت السـيارة تدخـل إلى مستشـفى طنطـا الجامعـي – عنايـة القلـب. وكان د. أيمـن يدفـع المقعـد بنفسـه لاهثًـا.. وعندمـا رقـدت عـلى الفـراش أخـيرًا ووضعـوا الأقطـاب عـلى صـدري عرفـت أن الوضـع خطـير جـدًا.. قنـاع الأكسـجين.. القسـطرة.. الوجـوه السـاهمة مـن حـول الفـراش.. لكـني غـير مهتـم.. لا أريـد سـوى النـوم.. أريـد أن انـاااااام..

أصر د. أيمـن عـلى أن أوجـد في هـذه العنايـة المجانيـة لأن الأطبـاء قريبـون جـدًا..

عندمـا رقـدت في الضـوء الخافـت بعـد ذلـك، كنـت أفكـر في أحـداث اليـوم. كان مـن الـوارد جـدًا أن يكـون موعـد دفـني هـو الأحـد ٣ إبريـل بعـد صـلاة الظهـر.

إذن كان هـذا هـو المـوت.. بـدا لي بسـيطًا مختـصرًا وسريعًـا.. بهـذه البسـاطة.. أنـت هنـا.. أنـت لـم تعـد هنـا.. والأغـرب أنـني لـم أر أي شيء مـن تجربـة الدنـو مـن المـوت NDE الـتي كتبـت عنهـا مـرارًا.. تذكـرت مقولـة سـاخرة قديمـة هـي أن عـزاءك الوحيـد إذا مـت بعـد الخامسـة والأربعـين هـو أنـك لـم تمـت شـابًا!

بالنسـبة لي مـت مرتـين في يـوم واحـد، ولـم يكـن الأمـر صعبًـا جـدًا.. فجـأة انقطـع الفيلـم في لحظـة بعينهـا ثـم عـاد بعـد حذف عـشر دقائـق. جميـل جـدًا ألا تعـرف أنـك تمـوت ولا تتوقـع ذلـك. فجـأة أنـت هنـا.. فجـأة أنت هناك مـع الـسر الأزلي، وتدخـل عالم القـبر والكفـن وانتفـاخ البطـن وسـقوط الأنـف.. ويخافـك الأحيـاء.. لكنـه بـلا شـك أفضـل مـن معانـاة صعوبـة التنفـس أيامًـا وأنـت

موصول بجهاز تنفس، أو الشلل عدة أشهر وتلويث الملاءات، أو السقوط تحت عجلات قطار أو ميكروباص مجنون.. كانت ميتة جيدة نظيفة برغم كل شيء..

شاء الله ألا يفقد الصغيران أباهما الآن..

مرت علي الأيام هناك في قسم القلب، وبدأ اللغز يتضح نوعًا... عضلة القلب متضخمة بسبب ارتفاع ضغط الدم وهذا جعلها غير مستقرة تمامًا.. ربما عملت أدوية الربو الكثيرة على إصابة العضلة بالجنون، وربما هو نقص في البوتاسيوم أم المغنسيوم. المهم أنني كنت أريد أن أنام.. لكن هذا كان مستحيلاً لأن صديقًا أو قريبًا كان يأتي في كل خمس دقائق.. وفي الليل تبدأ الممرضات في الشجار والكلام بصوت عال، ومع الصباح يصل الزوار ثانية حتى طلبت من الأطباء كتابة ورقة تعفيني من الزيارات.. كنت أنهار فعلاً وصرت مرهقًا والعالم صار شفافا غريبًا.. أريد النوم بأي ثمن. صديقي د.إيهاب نائل فهم المشكلة فورًا فجلب لي شريطًا من الأقراص المنومة، ومع أول أقراص غبت في عالم سحري.. لدرجة أنني صرت أسمع موسيقا الكالبسو، وأرى راقصات من الكاريبي في العنبر، وفوق الفراش هناك ببغاء ملون يراقبني، وخيل لي أن الممرضات يلبسن قبعات قش عملاقة (لا أمزح). لقد أنقذ إيهاب حياتي فعلاً.

لم أكن في ذلك الوقت أعرف ما يقال من ورائي..

منال زوجتي قابلت د. أيمن السعيد وقابلت أصدقائي تستشيرهم، وكانت تفعل ذلك عندما يأتي محمود ابن أختي

لزيـارتي فيأخـذ مكانهـا. كانـت هنـاك مشـكلة مزمنـة تتعلـق بي لأنـي لا أتحسـن برغـم كل المحـاولات.. لا توجـد طريقـة لجعـلي أعـود للبيـت ثانيـة.. لا ضمانـات. هنـا فكـر د. أيمـن في ان يرسـلني لمستشـفى عـين شـمس التخصـصي ليقومـوا بـزرع جهـاز حديـث لي. اتفـق مـع زوجـتي عـلى ذلـك وتـم ترتيـب كل شيء.

يـوم الأربعـاء التـف كل اصدقـائي حـولي وقالـوا إنـني يجـب أن أذهـب لمستشـفى عـين شـمس...لقد تـم ترتيـب الأمـور هنـاك، واخـبرني د. أيمـن أنـه ألغـى سـفره إلى إسـبانيا ليتأكـد مـن أنـني سـأجري الجراحـة في عـين شـمس بـلا مشـاكل. شـعرت بالهلـع.. كنـت أحسـب قصتي قـد انتهـت، وأتاهـب للعـودة للـدار فاتضـح أن هـذه هـي البدايـة!... وعرفـت أن زوجـتي تعـرف هـذا كلـه. كنـت أشـعر أنـني لـن أرى طنطـا ولا أولادي ثانيـة.. وطلبـت أن يجلبـوا محمـد ومريـم لي لأراهمـا مـرة ثانيـة وربمـا أخـيرة..

كانـت جلسـة قاسـية سـيئة ومريـم بثيـاب المدرسـة لا تفهـم شـيئًا وكذلـك محمـد. ثـم جـاءت سـيارة الإسـعاف تقـف أمـام قسـم القلـب فصعـدت لهـا لأجـرب لأول مـرة شـعور الضحيـة الراقـدة.. شـعور القتيـل كمـا كنـا نقـول مازحـين. في السـيارة تركـب معـي منـال ود. عمـرو فايـز مـدرس أمـراض القلـب، والأمطـار تنهمـر.. جـو مناسـب جـدًا للمـوت. وتنطلـق السـيارة في الشـوارع والسرينـة تـدوي.. هـذا أنـا يـا شـباب.. هـذه المـرة أنـا المريـض.. وسـع الطريـق.. معانـا كاتـب قصـص رعـب يموت..خليـك يمـين يـا مـلاكي.. مـن حـين لآخـر ينهـض د. عمـرو ليقيـس ضغـط دمـي.. متأهبًـا لعـودة توقـف القلـب في أي لحظـة..

وعند المساء وصلنا مستشفى عين شمس التخصصي...

العنايـة المركـزة هنـاك تتمتـع بالكفـاءة والدقـة، لكنهـا كئيبـة جـدًا.. تشـعر أنـك في قبـو تحـت الأرض، طبعًـا شـبكة المحمـول لا تعمـل عـلى الإطـلاق. هنـاك كان ابـن أختـي بانتظـاري ودخلـت منـال في مشـاكل مـع طبيـب العنايـة الـذي يـصر عـلى ألا تبقـى معـي، وكان هـذا رأيي عـلى كل حـال، لكنهـا اتصلـت بدكتـور وجـدي جـلال أسـتاذ أمـراض القلـب الـذي طلـب مـن الطبيـب أن يتركهـا تبقـى...

ليلة طويلة هي فعلاً..

في الصبـاح نقلـوني لغرفـة الجراحـة حيـث كان د. وجـدي جـلال ومعـه فريـق بالـغ الكفـاءة.. أجـروا عمليـة قسـطرة (بسرعـة البـرق) عرفـوا بعدهـا أنـه لا مشـكلة في شراييـني التاجيـة. هـذه مشـكلة كهربـاء وليسـت مشـكلة سـباكة كما يقولـون. وهكـذا بـدأت أغيـب عـن العالـم مـع مـا حقنـوني بـه، بينمـا هـم يفتحـون فتحـة في صـدري ويغلقـون فتحـة فخـذي. وعندمـا أفقـت بعـد سـاعة كان كل شيء قـد تـم، وزرعـوا الجهـاز الـذي يبلـغ حجمـه تقريبًـا حجـم مـاوس الكمبيوتـر.

الجهـاز الـذي زرعـوه لي ليـس منظـم ضربـات للقلـب.. إنـه أعقـد مـن هـذا... اسـمه ICD ومهمتـه أن يراقـب النبـض فـإذا شـعر باضطـراب أو ارتجـاف بطيـني أطلـق الصدمـة الكهربيـة الـتي تعيـدني للحيـاة، ويعمـل بحجـارة تسـتبدل كل سـبع سـنوات. جهاز باهـظ الثمـن طبعًـا لكـن جامعـة طنطـا قامـت بتحمـل تكاليفـه بالكامـل.

وعدت للبيت بعد يومين بينما الأمطار تنهمر...

أتابـع الجهـاز دوريًـا في مستشـفى عـين شـمس مـع الأسـتاذة الدكتـورة هيـام، وهـي بالغـة الاهتمـام بفسـيولوجيا القلـب. شـعرت مرتـين بالجهـاز يصـدر أزيـزًا، ولا أعـرف معـنى هـذا.. ربمـا معنـاه أنـني نجـوت مرتـين أخريـين..

كانـت المشـكلة في المرحلـة التاليـة هـي الـدوار.. فعلاً لا اسـتطيع أن أبقـي رأسي مرفوعًـا أبـدًا.. المشـكلة الثانيـة كانـت الاكتئـاب.. اكتئـاب شـديد مـروع اسـتمر عـدة أشـهر، وهـو شـبيه بالاكتئـاب الـذي يصيـب كل مـن يخـرج مـن نوبـة قلبيـة.. ذلـك الشـعور الكئيـب بـأن اليـوم طويـل والإضـاءة ضعيفـة والتنفـس صعـب!.. يضيـق صـدرك تمامًـا وتشـعر بأطنـان تجثـم عليـه.. فعـلا شـعور فظيـع! لـو لـم يـزل لكنـت قـد جننـت فعـلاً..

دعـك مـن رقابـة زوجـتي الصارمـة لي. طبعًـا منعـتُ التدخـين ومنعـتُ القهـوة، لكنهـا كانـت تريـد منـع الشـاي كذلـك.. تعتقـد أن الأطبـاء نسـوا منعـه.. منـع التدخـين سـاهم في تفاقـم حالـة الاكتئـاب، ومـا زلـت حـتى اليـوم أنظـر بحسـد لـكل مـن يدخـن بـلا تأنيـب ضمـير أو لـوم.

عندمـا راجعـت الفحـوص الطبيـة وجـدت أنـه كان مـن الخسـارة ان أمـوت.. أنـا مهمـل في صحـتي جـدًا، وكنـت أتوقـع وضعـا في غايـة السـوء، وأن أجـد الكليـة تالفـة والشرايـين التاجيـة مسـدودة ولـدي سـكر لـم يعالـج.. الغريـب أن كل شيء رائـع.. وظائـف الكليـة ممتـازة.. لا يوجـد سـكري.. دهـون الـدم سـليمة تمامـا.. الشرايـين التاجيـة كشرايـين طفـل.. طفـل لـم يدخـن سـيجارة أو يـشرب قهـوة أو يـأكل قطعـة دهـن في حياتـه!

لقد عدت للحياة.. يجب أن أتذكر هذا.. ربما كانت لعودتي دلالة مهمة.. لا أعرف.. ربما كان هناك عمل مهم جدا سوف أنجزه.. لكن ما هو؟.. أخشى أن أكون قد عدت لأتلف ما قمت به في حياتي الأولى.

الموت يأتي بسرعة فائقة فلا تراه قادمًا.. ومن ماتوا لم يجدوا فرصة ليخبروا الآخرين بهذا. أنا من القلائل الذين عادوا ويمكنهم أن يؤكدوا لك ذلك!

مرحبًا بكم في سيرك (أبو شفة)

منـذ أيـام أخـذت ابنـتي لسـيرك إيطـالي شـهير يعـرض ألعابـه في طنطـا، وسـبب عـدم اصطحـاب ابـني وزوجـتي هـو أنهمـا يمقتـان السـيرك بشـدة. كان العـرض مصممًـا بعنايـة وبالـغ الإبهـار، وقـد راق لابنـتي كثـيرًا، لكـني لـم أسـتطع نسـيان ذكـرى حريفـة قديمـة تعـود لطفولـتي. هـل كان سـيرك (أبـو شـفة) بالفعـل أجمـل مذاقًـا؟.. ربمـا.. وربمـا لأنـه كان أول سـيرك أراه في حيـاتي..

أعـود بذاكـرتي إلى العـام ١٩٧٢.. أي أننـا نتحـدث عـن أربعـين عامًـا.. لا تندهـش.. أنـا لسـت متوشـالح شـيخ التـوراه.. أنـا مجـرد رجـل عـلى بـاب الخمسـين، وسـوف يـأتي عليـك يـوم مماثـل تكتشـف فيـه أن أربعـين عامًـا مضـت منـذ قامـت ثـورة مـصر ٢٠١١..

بمـا أنـني مـن طنطـا، فمولـد السـيد البـدوي يلعـب دورًا مهمًـا في ذكريـاتي.. أسـبوع يتصاعـد في إثارتـه وحماسـته حـتى نصـل إلى الليلـة الكبـيرة. إن الفلاحـين في القـرى حـول طنطـا ينتظـرون هـذا اليـوم في شـغف، ويدخـرون المـال لإنفاقـه في هـذا الأسـبوع. وقـد لاحـظ عالـم الاجتمـاع الكبـير عـلي فهمـي أن معظـم موالـد مـصر لا علاقـة لـه بتاريـخ ميـلاد الأوليـاء، ولكـن لـه علاقـة بجـني المحاصيـل!.. أي أن المولـد يتـم تصميـم تاريخـه حسـب الوقـت الـذي يكـون فيـه الفـلاح قـد بـاع محصـولاً معينًـا وجيبـه مـليء.. إنهـا لعبـة اقتصاديـة لا دور للديـن فيهـا كمـا تـرى. وعـلى هـذه الأيـام يعتمـد دخـل كبـار تجـار طنطـا لمـدة عـام تقريبًـا.

يذهب الفلاح للمولد لينعم بليلة الأحلام.. كأنه ذهب إلى ديزني لاند.. نيشان.. التهام ذلك الهلام الملون مجهول الهوية في أطباق.. مص القصب.. مشاهدة الرقص الشرقي.. أكل السمك المقلي الذي لا يعرف أنه قشر بطيخ مُعالج بعناية ليخدع الجميع.. ختان ابنه.. أكل الحمص وحب العزيز، ويحيط بهذا كله جو من الشعور بالبركة.. الخيام ذات اللون الأخضر إياه والإنشاد الشعبي من الشيخ (حامد حّفور)، وأشخاص لا يفعلون أي شيء ولا تعرف عنهم سوى أنهم (من المحبين). هذا دين مواز له طقوسه وعباداته، فلا تندهش.. هناك في جنوب مصر مقام لأحد الأولياء يعتبرون الطواف حوله بمثابة حجة.. فلا داعي لأداء فريضة الحج بعد ذلك !!!!. إن كتاب د. علي فهمي عن تدين الحرافيش في مصر كتاب ممتع ومهم جدًا، وقد صدر عن دار ميريت إذا كنت مهتمًا بالاستزادة.

ثم تأتي لحظة الذروة الأخيرة يوم الجمعة.. عندما يمر موكب الخليفة، والنقرزان وتلك الدقة المميزة للطبول، بينما تزغرد النساء. كنت أسكن قديمًا في بيت يطل على الشارع الرئيس الذي يمشي فيه الموكب، كان من ضمن طقوس طفولتي أن أقف في النافذة لألقي البونبون على هذا الموكب، وكنت أعلق أهمية دينية عظمى على هذا الطقس.. احتجت لوقت طويل حتى أتعلم أن هذا كلام فارغ وبعيد عن الدين، وكانت صدمة معرفية أولى..

بعد هذا اعتدت أنا وأبي أن نصلي الجمعة ثم نذهب لمراقبة هذا الموكب. ثم نعود للبيت سريعًا، ومن المصادفات الغريبة أن السماء كانت تمطر دومًا بعد مرور موكب الخليفة.

لا دور للمعجزات هنا طبعًا، ولكن أعتقد أن الأمر يتعلق بكمية الأتربة الرهيبة التي تصعد لعنان السماء.

كنا نمشي في ذلك اليوم قرب ميدان السيد البدوي الذي بدأ يفرغ من الزحام وبدأ أصحاب الخيام يجمعونها. تلك اللحظة المفعمة بالشجن التي يعرفها كل طنطاوي جيدًا.. المدينة تخلو والغبار يملأ الجو والمطر ينهمر، ثم تأتي ليلة مقفرة صامتة.. وغدًا العودة للمدارس!

هنا فوجئت بتلك الخيمة التي لم يفكوها بعد.

كانت هناك منصة يقف عليها رجل يلبس سترة لامعة شبيهة بجلد الثعبان، ويمسك بمكبر صوت.. وجواره رسم عملاق رديء وغليظ جدًا يظهر ساحرًا وفتاة بلا رأس وأسدًا يزأر..

وكان يهتف:

ـ«بقرش صاغ واحد.. يا سلام.. السيرك العالمي.. سيرك (أبو شفة)».

في ذلك الوقت كان مبلغ قرش صاغ فادحًا يحتاج لبعض التدقيق.. يدخل الجيب بصعوبة ويخرج منه بصعوبة. ثم ما موضوع (أبو شفة) هذا؟.. كلنا لدينا شفة، فلابد أن (أبو شفة) له شفة عملاقة جديرة بالتدريس في كتب التاريخ الطبيعي..

ـ«فتاة النار والكهربا.. تحط اللمبة على رجلها تنور.. على صدرها تنور».

ومـن خلفـه خرجـت فتـاة منكوشـة الشـعر قبيحـة كالأبالسـة، وهـي تـأتي بحـركات إغـراء تقلـد بهـا فتيـات الاسـتعراض.. ثـم ظهـر رجـل متسـخ الثيـاب يبـدو كعسـكري المـرور.. لـه شـارب رفيـع ويقلـد شـارلي شـابلن..

ـ«تعال شوف شارلي شابلن.. يا ابن العفريتة يا شارلي».

وكنـت في ذلـك الوقـت قـد كونـت نظريـتي الخاصـة عـن أن أي شـخص يقلـد شـارلي شـابلن يكـون هـو السـماجة بعينهـا. وقـد كان هـذا صحيحًـا.

ـ«تعال شوف الأسد والنمر.. وشوف الشجيع».

كنـت أحفـظ تحفـة صـلاح جاهـين الرائعـة (الليلـة الكبـيرة) الـتي امتـدت لهـا لمسـات سـيد مـكاوي والسـقا لتجعـل منهـا حجـرًا كريمًـا يتوهـج في عنـق الفـن المـصري، لهـذا كنـت أتوقـع أن هنـاك أسـدًا فعـلاً.. أنـا شـجيع السـيما أبـو شـنب بريمة..وتعـال لي يـا حبيـبي تعـال لي..

ـ« كل حاجة بجنيه واحد..».

ترفـع الفتـاة إصبعهـا بحركـة تحسـبها رشـيقة بمـا يعـني (جنيـه واحـد)..

ـ«يـا الله.. آخـر عـرض في مدينـة طنطـا الكريمـة.. قبـل مـا يلعـب..».

هـذا هـو العـرض الأخـير قبـل مغـادرة البلـدة كمـا نـرى في القصـص الـتي تـدور في الغـرب الأمريـكي. سـوف يحـضر المأمـور

للتأكـد مـن أن الفرقـة غـادرت البلـدة فعـلاً، عـلى حـين تتحـرك عربـة الأسـود وعربـة الأفيـال بتثاقـل نحـو المولـد التـالي أو البلـدة التاليـة.. في ألاباما..

كان رد فعـل أبي هـو أن جـذب يـدي ليبتعـد، لكـني تسـمرت في الأرض وقـد أدركـت الحقيقـة: سـأموت لـو لـم أر هـذا العـرض.. ابعـدوني مـن هنـا واحفـروا لي قـبرًا..

أبي المسـكين يعبـث في جيبـه مضطـرًا فيخـرج قرشـين.. ونحصـل عـلى تذكرتـين، وندخـل إلى عالـم الأحـلام بالنسـبة لي.

كان أبي مديـر شركـة متأنقًـا شـديد الوقـار، لا يتحـرك إلا بالبدلـة والصديـري وربطـة العنـق، فكانـت المفاجـأة الأولى بالداخـل أن جمهـور السـيرك مـن الطـراز الـذي يحـضر بالبيجامـة والجلـوس عـلى دكك خشـبية مهشـمة مليئـة بالمسـامير. المفاجـأة الثانيـة بالداخـل هـي أن البراغيـث كثـيرة جـدًا.. المفاجـأة الثالثـة أن معظـم الموجوديـن مـن الصبيـة.. وغالبًـا هـم صبيـة في السـابعة يدخنـون السـجائر ويتبادلـون السـباب.. أنـت تعـرف أن الصبيـة في هـذه السـن يبالغـون في الوقاحـة وقلـة الأدب لأن هـذا يجعلهـم أقـرب للكبـار..

أبي المسـكين وجـد نفسـه في السـيرك فعـلاً، بالمعـنى الحـرفي للكلمـة، فـدس رأسـه في الجريـدة وحـاول أن تمـر هـذه اللحظـات بسرعـة.. نفـس منطـق مـن يقـف عـلى منصـة المشـنقة بانتظـار هبـوط الطبليـة.. لحظـات قاسـية لكنهـا سـتنتهي سريعًـا يـا سـادة.

عـلى المـسرح بـرز الرجـل الـذي كان يدعونـا للدخـول بالخـارج. إذن هـو (أبـو شـفة) نفسـه، وقـد خـاب أمـلي لأن شـفته ليسـت

متضخمة.. وأعلن بكل فخر:

ـ«الآن إليكم الساحر الليبي».

ومن مكان ما تعالت موسيقا من أكورديون تالف وطبلة من الطراز الذي يوضع بين ركبتي العازف، ونظرت بحثًا عن الساحر الليبي فاكتشفت أنه أبو شفة نفسه.. هذا الرجل رائع فعلاً. لقد غير لهجته إلى ما يعتقد أنها لهجة ليبية، واحتفظ بنفس الثياب وكل شيء، وبدأ يقدم فقرة عن ابتلاع خمس كرات لتخرج من فمه ستًا أو شيئًا من هذا القبيل.. الأسوأ أنه طلب صبيًا من الحضور ليساعده، وناوله بعض الكرات التي ابتلعها هو ليبتلعها!... حمدت الله على أنه لم يختصني بهذا الشرف.. شرف ابتلاع الكرات التي كانت في فمه..

ثم جاءت الفقرة المعروفة للسلاسل التي تدخل في بعضها، والماء الساخن الذي ينسكب على الناس.. الخ. لقد كان عرض الساحر الليبي حافلاً، ثم سرعان ما عادت لهجة (أبو شفة) لطبيعتها وقدم الفقرة التالية: تحط اللمبة على صدرها تنور، وهي كما تعرفون شعار هذا النوع من المسارح..

نظرت لأبي فوجدته غارقًا في الجريدة وقد صار لونه بلون الطماطم.. لا يجسر على رفع رأسه لحظة..

الفقرة التالية كانت مطربة أفراح من اللواتي يضعن كلاكس سيارة اسعاف في حلقهن، لكن يبدو أنها أسعدت الجماهير فعلاً. يبدو أنها الديفا أو الـ Super trouper هنا.. ثم ظهر شارلي شابلن على المسرح ليؤدي فقرة معقدة لم أفهمها حول تدخين السجائر وابتلاعها ثم إخراجها ثانية.. أما ذروة

العرض فكانت هي الأميرة الهندية مقطوعة الرأس التي وضعوا رأسها في مزهرية ويكلمها (أبو شفة)، وكنت قد قرأت عن طريقة هذه اللعبة، وأنه يجب أن تلقي ورقة مجعدة جوار المنضدة لتكتشف أن هناك مرآة تتوارى وراءها هذه الفتاة.. فكرت في ذلك لكن وجه الأخ (أبو شفة) لم يكن يشجعك على هذا الجهد الاستكشافي..

وفجأة أعلن الرجل عن انتهاء العرض....

لم يسأل أحد عن وعد الأسد والنمر الذي حنثوا به، وتدافع الكل للخروج. رأيت مقدم الحفل يتخلى عن لطفه ليصيح في شارلي شابلن وعيناه تطقان الشرر:

ـ«عارف يا شارلي لو شفت واحد هنا من العرض اللي فات حشوف شغلي معاك!.. فيه وشوش بشوفها في كل عرض!».

ورأيت شارلي شابلن يحمل خيرزانه ينزل بها بين الصفوف وهو يصيح بوجه شرس:

ـ«يا الله ياد.. يا الله ياد يا بن الـ.....».

منظر جدير بالرؤية فعلا.. شارلي شابلن بكامل ثيابه المرحة يتكلم ويطلق السباب.

وعلى الباب كان هناك حشد الوجوه الطازجة التي تنتظر دورها لرؤية هذه الأعجوبة بالداخل. بينما وقف أبو شفة على منصة، لطيفًا ظريفًا كما كان:

ـ«بقرش صاغ واحد.. يا سلام.. السيرك العالمي.. سيرك

(أبـو شـفة)».

وسـأل ولـد ببيجامـة خاطـت عليهـا أمـه اسـمه وعنوانـه.. سـأل أبي:

ـ«السيرك حلو يا كابتن؟».

فهز أبي رأسه في وقار أن نعم وابتعد بي مسرعًا..

برغـم هـذا فإنـني سـأظل أذكـر هـذا السـيرك كثـيرًا جـدًا.. أعـترف أنـني لـم أشـعر بنفـس الـسرور والنشـوة وأنـا أرى ذلـك السـيرك الإيطـالي، كمـا إنـني رأيـت فيلمًـا لـ (سـيرك الشـمس) العالمـي الشـهير فلـم أشـعر بـذات الانبهـار..

أمـا عـن أبي فإنـني أندهـش مـن الحـد الـذي يمكـن أن يذهـب لـه الأهـل لإرضـاء أبنائهـم. أعـرف واحـدة مـن قريبـاتي، وهـي أسـتاذ جامعـي. أخـذت طفلتهـا إلى السـوق وهنـاك وجـدت الطفلـة أرجوحـة مـن تلـك المراجيـح الصدئـة الـتي يجرهـا بغـل أجـرب، فـأصرت عـلى ركوبهـا. قامـت الأسـتاذة الجامعيـة بوضـع طفلتهـا في الأرجوحـة للفـة أو اثنتـين.. فلمـا انتهـت وجـدت أن الرجـل يطالبهـا بأجـر اثنـين:

ـ«مش انتي اتمرجحتي معاها يا أبله؟».

كان أبي مـن ذلـك الجيـل مـن الآبـاء الذيـن يجمعـون بـين الحـزم الشـديد والاسـتعداد لعمـل أي شيء حـلال وقانـوني يسـعد أطفالهـم.. أبـوس ايـدك أن تقـرأ لـه الفاتحـة معـي الآن!

خداع النفس فن

هناك نوع فظيع من خداع النفس اسمه «الشيطان جعلني أفعل كذا».. هكذا تقول الزوجة الخاطئة واللص والقاتل عندما يواجهون بعيون زائغة عدسات الصحافة. يذكر صلاح عيسى في التحقيقات مع سفاحتي الإسكندرية «ريا وسكينة» أن المرأتين كانتا تؤمنان أن كله «قدر ومكتوب»!.. أي أنهما كانتا تصحبان الضحية لبيتهما، وتسكرانها وتخدرانها، ثم تخنقانها بمنديل مبتل بالماء، ثم تقومان بدفنها تحت أرضية الغرفة.. كل هذا قدر ومكتوب ولا دخل لهما فيه!

على إن خداع النفس الذي أتحدث عنه هنا ليس بهذه الدرجة، ولا يصل لدرجة ذبح النساء ودفنهن..

إنه خداع كل لحظة في حياتنا..

يخدع المرء الكثيرين في حياته.. ولعل هذا من ضروريات الحياة المهمة التي تبقينا أحياء، وكما يقول مارك توين: لولا البلهاء لما حقق الآخرون أي نجاح..

نناور ونخفي أفكارنا، ونكذب ونتزلف.. وفي النهاية نحقق ربحًا أكيدًا. لكن أرقى أنواع الخداع طرًا وأقواها تأثيرًا هي الخداع الذي نمارسه على أنفسنا..

أنهت تلك الطفلة قريبتي امتحانات النقل، فقالت في فخر

إنهـا غشـت كل الأسـئلة وإن المعلمـة (المـس الآن) مـرت عـلى الطالبـات وأملتهـن بعـض الحلـول كجـزء مـن سياسـة إفسـاد التعليـم السـائدة.. المـدارس تفهـم الآبـاء وتفهـم أن إرضاءهـم أهـم بكثـير مـن قيـاس قـدرات التلميـذ الحقيقيـة.. ليـس هـذا موضوعنـا عـلى كل حـال. المهـم أن قريبـتي الصغـيرة ظلـت تلعب لمـدة أسـبوع ثـم ظهـرت النتيجـة.. هنـا وجـدت أنهـا حصلـت عـلى درجـة أقـل مـن زميلاتهـا. هكـذا استشـاطت غضبًـا:

ـ«درجة كاملة؟.. كيف؟.. ولماذا؟ بالتأكيد هناك خطأ».

فلمـا ذكرتهـا في أدب أنهـا غشـت الامتحـان بالكامـل حسـب كلامهـا، قالـت لي محنقـة إن إجاباتهـا كانـت صحيحـة تمامًـا، ثـم لـو افترضنـا أنـني غششـت فلمـاذا حصلـت عـلى درجـة أقـل مـن زميـلاتي ونحـن جميعًـا غششـنا مـن مصـدر واحـد وكتبنـا نفـس الـكلام؟. قلـت لهـا إن درجـة واحـدة شيء تافـه.. لكنهـا لـم تكـن لتتهـاون مـع درجـة أو عشريـن درجـة.

مرضـت وتعكـر مزاجهـا وارتفعـت درجـة حرارتهـا، حـتى أن أمهـا هرعـت إلى الإدارة التعليميـة تطلـب فحـص درجـات ابنتهـا.. ودخلـت في مشـوار أوديسـيوس الشـهير بـين المكاتـب ودفعـت مبلغًـا لا بـأس بـه مـن المـال.

في النهاية.. لم تحصل الطفلة على أي درجة..

هـذا أمـر محـير. الطفلـة منـذ البدايـة تعـرف أنهـا نالـت درجاتهـا بالغـش.. وتعـرف مـا كتبتـه فعـلاً. هـل مـن المهـين أن يقـوم المـرء بالغـش أقـل مـن اصدقائـه؟

أعتقد أن هذا يندرج تحت بند الذاكرة الزائفة.. أنت تقنع نفسك بأنك لم تغش.. وبعد فترة يكون هذا ما فعلته فعلاً. أنت تغير الماضي على طريقة الخواجة أورويل في ١٩٨٤ حينما يصير فلان Unperson أي أنه لم يوجد قط، أو حينما تقنع الناس أنهم كانوا في حرب دائمة مع إيوراسيا منذ البداية. هكذا صارت قريبتي تؤمن انها تعبت في إجابة الامتحان فلم تحصل على حقها.

كنت أعتبر هذه القصة ضمن غرابة أطوار الأطفال المعروفة، لكني بعد ذلك صرت مدرسًا بكلية وعملت في الكونترول. بعد أن تعلق النتيجة وينتهي كل شيء، تكتشف أن الفيلم لم ينته بعد، وان هناك ما يدعى (تظلمات). يستدعيك رئيس الكونترول لأن هناك بعض أوراق الإجابة يجب التحقق منها.. في عهدي كان معنى هذا أن تعود لأكوام من أوراق الإجابة الملفوفة بالحبال المكسوة بالغبار، تلك التي أفرغت الفئران أحشاءها ومثاناتها عليها.. دعك من الفئران التي تجري على قدمك. لا يهم.. هذا عملي وهو عمل نبيل.. ما أجمل أن تعيد لطالب مظلوم حقه. لقد اكتشفت ذات مرة خطأ في جمع الدرجات جعل طالبًا يرسب بينما هو يستحق تقدير (امتياز)، وقمت بالتصحيح.. وشعرت يومها بأنني رائع وأن حياتي لم تذهب سدى! جميل أن تجرب هذا الشعور ثانية حتى مع بول الفئران..

الطالبة تؤكد في خطابها إنها رسبت في المادة بينما هي تعرف يقينًا أن إجابتها كاملة. تصل لكراس إجابتها وتفتحها.. لا شيء.. بيضاء من غير سوء.. فقط اكتفت بأن تكتب السؤال بلا إجابة

أعـلى كل صفحـة. عندمـا تعيـد هـذا كلـه لمكانـه وتغسـل وجهـك وتجلـس لتـشرب الشـاي، تفكـر في معـنى مـا رأيـت.. الفتـاة تعـرف يقينًـا أنهـا لـم تكتـب شـيئًا فلمـاذا قدمـت هـذه الشـكوى؟

التفسـير الأول أنهـا مخبولـة وأنهـا خلقـت لنفسـها ذاكـرة زائفـة، فتخيلـت أنهـا أجابـت عـن الامتحـان إجابـة نموذجيـة.

التفسـير الثـاني هـو أنهـا تسـجل موقفًـا أمـام أهلهـا.. لقـد قدمـتْ شـكوى وسـوف تـرى.. ثـم عندمـا نعلـن نحـن إن شـكواها بـلا أسـاس تقـول باكيـة:

ـ«هما حيغلطوا نفسهم؟.. لازم يطلعوا نفسهم صح!».

ثم ترفع يدها إلى السماء مرددة:

ـ«حسبي الله ونعم الوكيل فيهم.. ربنا ينتقم منهم».

وبالطبـع بعـد قليـل سـوف تكـوّن ذاكـرة زائفـة، وتؤمـن أن إجابتهـا كانـت ممتـازة لكننـا أوغـاد.. الأهـم أنـني جربـت هـذا الموقـف مـرارًا.. إنـه ليـس نـادرًا عـلى الإطـلاق..

هنـاك مثـلاً ذلـك الرجـل النهـم الـذي نصحـه الطبيـب بـأن ينقـص مـن وزنـه ويـأكل المسـلوق.. هـذا الرجـل صديقـي وأعـترف أنـه شره فعـلاً..

دعـاني إلى الغـداء في بيتـه في ذلـك اليـوم، وبـدأت المأدبـة.. شـعرت باحـترام بالـغ لـه عندمـا وضعـوا أمامـه طبقًـا مـن الكوسـة المسـلوقة، بينمـا وضعـوا أمامـي أطباقًـا دسـمة مغريـة بحـق.. هـذا رجـل قـوي الإرادة فعـلاً. أنـا لا اسـتطيع أن أملـك هـذه

الشـجاعة.

قال لي بلهجة رثاء للنفس وهو يرشف الحساء الكئيب:

- «معذرة.. هذه أوامر الطبيب».

قلت له متصعبًا:

- «أعطاك الله الصحة».

انتهى من شرب حساء الكوسة.. وظل يرمق الطبق في حسرة. هنا فوجئت بصاحبة الدار ترفع الطبق الفارغ، وتضع أمامه طبقًا شديد الدسامة، ثم زوجًا من الحمام، وماسورة مسلوقة تسبح في بحر من الدسم والبهريز.. وبدأ يأكل في نهم شديد..

فهمت من زوجته بعد ذلك أن الرجل افترض أن أكل المسلوق معناه أن يأكل المسلوق بالإضافة لما كان يأكله في الماضي!

أي أنه يأكل المسلوق كنوع من العلاج يؤخذ قبل الأكل!.. أو كأن التهام المسلوق طقس سحري يجب أن يمارس من أجل الشفاء ولا علاقة له بالأكل.. النتيجة هي أن وجباته تضاعفت تقريبًا وازداد وزنه، وكان رأيه بالطبع هو أن الطبيب أحمق لا يفقه شيئًا..

دهشت جدًا لهذا النوع من خداع النفس. خاصة أن الرجل يعيش في حالة مستمرة من الرثاء للذات، حتى لتوشك عيناي على أن تدمعا من أجله.

لدي صديق آخر أقلع عن التدخين.. وقد وجدته يجلس في مقهى يدخن الشيشة. وقال لي إنه يلجأ لهذا الحل كبديل

«صحي» عن السيجارة!.. يقول أطباء الصدر إن الحجر الواحد يصل لثلاث عشرة سيجارة، وربما خمس وعشرين سيجارة.. صاحبنا يعرف ذلك جيدًا لسبب لا تتخيله.. لأنه طبيب صدر!.. لكنه مقتنع بهذا النوع من خداع الذات..

لكن الذاكرة الزائفة تلعب دورًا مهمًا هنا كذلك.. لو سألت هذا الرجل لقال لك إنه لا يدخن الشيشة بتاتًا، ولو بحثت في عقله لوجدت أنه بالفعل لا يعرف عن نفسه سوى هذا..

الأطباء النفسيون يعرفون طيف الأمراض المعروفة باسم Stomatization syndromes لا أعرف كيف أترجمها، وأقترح أن تترجم بـ (متلازمات الجسمنة).. هذا اسم معقد رهيب آخر سوف يروق للجميع. هذا الطيف يبدأ بالتمارض.. (الاستعباط) الصريح.. المريض يصطنع أعراض المرض اصطناعًا ويعرف ذلك.. ثم نمر بمتلازمة منخاوزن حيث يعتقد المريض أنه مصاب بمرض خطير ويدمن المستشفيات.. بعد هذا تأتي الهستيريا حيث المريض يصطنع أعراض المرض اصطناعًا لكنه لا يعرف ذلك.. أي إن خداع النفس صار طبيعة يمارسها دون أن يعرف أنه يمارسها.. أعتقد أن الذاكرة الزائفة جزء أصيل من الهستيريا..

يحكي محمد حسنين هيكل في كتاب (بين الصحافة والسياسة) أنه قابل مصطفى أمين في السجن، فراح مصطفى أمين يقول له في حماسة: هل تذكر عندما فعلنا كذا وعندما قلت لك كذا؟.. الخ.. ولم يكن لهذه الذكريات أي وجود. ثم فطن هيكل إلى أنها الذاكرة الزائفة.. لقد ابتكر خيال مصطفى أمين هذه الذكريات ثم صدق أنها حدثت فعلاً، بحيث لم يعد

يعـرف ماضيًـا آخـر.

حـكى لي صديقـي أنـه جلـس مـع خصـم لـه حـاول أن يهينـه، فانطلـق صديقـي يلعنـه ويلعـن أهلـه :

ـ«قلـت لـه : انـت إنسـان منحـط.. امثالـك يجـب أن يمزقـوا ويلقـوا للكلاب.. لـو رأيـت وجهـه وقتهـا!... لـم يسـتطع أن ينطـق حرفًـا... قلـت لـه: لا تكـن خصمًـا لي فانـا أعـرف كيـف أعذبـك وأهينـك».

أطـري شـجاعته وزلاقـة لسـانه، ثـم أبحـث خلسـة عـن بعـض شـهود الواقعـة فيقولـون لي إن صاحبنـا كان هـو الطـرف الصامـت العاجـز المثـير للشـفقة.. لقـد راح خصمـه يهينـه ثـم بـدأ يمزقـه ويسـلخه وهـو عاجـز عـن الـرد. مـا حـدث بعـد هـذا هـو مـا يطلـق عليـه الفرنسـيون (شـجاعة السـلالم).. بعـد انتهـاء الموقـف راح خيالـه يصـور لـه مـا كان يجـب أن يقولـه ويفعلـه. بعـد هـذا بـدأت ظاهـرة الذاكـرة الزائفـة تعمـل وصـار هـذا هـو مـا حـدث فعـلاً..

كثـير مـن النـاس يجبنـون في المشـاجرات أو لا يجـدون ردًا مناسـبًا، ولكنهـم بعـد المشـاجرة يؤكـدون لـك:

-«لـم أرد أن أرد حـتى لا أرتكـب خطـأ.. لقـد تركـت لـه الحبـل عـلى الغـارب ليخطـئ كمـا يريـد!».

وهكـذا يحـول جبنـه وبـطء تفكيره بطولـة ونبـلاً... لسـت بارعًـا في المشـاجرات بتاتًـا، وأجـد أفضـل الـردود بعـد انتهـاء الموقـف، لكـني أحتفـظ بالذكـرى القاسـية كاملـة فـلا أقنـع نفـسي أنـني

انتـصرت...

كلما قلبت عينيك في المجتمع وجدت خادعي النفس...

عنـدي مجموعـة كبـيرة مـن السراويـل.. بعضهـا يعود لأيـام كنت نحيـلاً رشـيقًا، وبعضهـا يعـود لأيـام صرت بدينًـا. أمـس ارتديـت بنطـالاً مـن أيـام الرشـاقة فأوشـكت عـلى المـوت اختناقًا، وشـعرت أن حجـابي الحاجـز صـار فـوق أذني.. كنـت أتنفـس بصعوبة وصرت عاجـزًا عـن الجلـوس أو السـعال أو التنفـس. اليـوم ارتديـت بنطالاً مـن أيـام البدانـة، فشـعرت بأنـني مسـتريح وأن البنطـال يحتـاج إلى حـزام يثبتـه لخـصري حـتى لا يسـقط.. قلـت لنفـسي إنـني بـدأت أفقـد وزنًـا وصرت رشـيقًا لأنـني لـم أتنـاول العشـاء أمـس...

نعـم.. صرت رشـيقًا في ليلـة واحـدة، لكـن هـذا لا يمنعـني مـن السـخرية ممـن يخدعـون أنفسـهم بـلا توقـف!

وماذا عن القراءة؟

إن عـدد مـن لا يقـرأون لأنهـم مقتنعـون أنهـم مشـغولون، أو لأن عيونهـم مريضـة لا يمكـن أن تمسـك بـه. معظـم النـاس لديهـم كتـاب مهـم لا يجـدون الوقـت كي يجلسـوا ليكتبـوه...

أمـا عـن الحـب فحـدث بـلا حـرج.. عندمـا يخطـب الرجـل الفتاة يكتشـف فجـأة أنـه يحبهـا بجنـون.. مـن مـكان مـا تخـرج القصائـد الشـعرية الرديئـة والدباديـب والأغـاني العاطفيـة، ويقفـان معًـا يشـاهدان الغـروب.. أضحـك دائمًـا كلمـا رأيـت هـذا المنظـر لأنـه في ٨٠٪ مـن الحـالات لا يبـالي أحدهمـا بالغـروب ويجـده ممـلاً.. هـو يفضـل نشـاطًا بيولوجيًـا أكـثر حيويـة، وهـي تفضـل أن يتجولا

ليريـا المحـلات ويدفـع دم قلبـه.. لكنهمـا مرغمـان عـلى ذلـك.. لابـد مـن تقمـص حالـة الحـب كمـا تظهـر في التلفزيـون والسـينما.. كلاهمـا يقنـع نفسـه أنـه يحـب الآخـر بعنـف...

بالطبـع هـذا هـو الفصـل الأول مـن القصـة، قبـل أن تتطـور الأمـور بعـد الـزواج.. هكـذا قـد تقـف ملوثـة بالـدم والسـكين في يدهـا أمـام عدسـات الصحافـة، وتكـرر بـلا توقـف إن كلـه قـدر ومكتـوب والشـيطان هـو الـذي أرغمهـا عـلى هـذا!، أو تنجـب فتذهـب لـلإدارة التعليميـة لفحـص أوراق ابنتهـا الـتي نقصـت درجـة عـن زميلاتهـا برغـم أنهـا غشـت الامتحـان بالكامـل!

قرب الجبل امرأة مرحة

منذ طفولتي والمعلمون يقولون إن عندي استعدادًا طبيعيًا لتعلم اللغات. هذا كلام جميل بالتأكيد، ولعلي ورثت هذا من أبي الذي كان يجيد أربع لغات، بل إنه قطع شوطًا كبيرًا في تعلم لغة الاسبرانتو التي كان العزم معقودًا على أن يتكلمها العالم كله، أيام عصبة الأمم والحلم بعالم واحد بلا حروب..

لكن تعلم اللغات ما زال يمثل لي عقبة شديدة التعقيد، ولا عجب إذا اعترفنا بأن المرء لا يجيد اللغة العربية نفسها حتى اليوم، ومن يزعم غير هذا مغرور حتمًا..

لا أعتقد أن هناك كلمة بأي لغة أجنبية مرت بي ولم أحاول حفظها. كانت هناك تلك الموسوعة التي تذكر عينات من اللغة اليابانية، وكنت في الثامنة من عمري عندما قرأت أن (يا ما تشيكا أوزوم) معناها (قرب الجبل امرأة مرحة). لم يخطر لي أنني في الواقع قرأت سطرين متتاليين معًا، وبالتالي حسبت أن من المواقف الشهيرة في اللغة اليابانية أن يقابل أحدهم صاحبه صباحًا، فينحني ويخبره بأن: «قرب الجبل امرأة مرحة». ولعل هذا خبر يتكرر في نشرات الأخبار؛ إذ تظهر المذيعة ضيقة العينين لتعلن للجماهير أن هناك قرب الجبل امرأة مرحة. كانت هناك كذلك كلمات مثل (رياح الآلهة) و(طريقة المحارب): بوشيدو وكاميكازي بالترتيب. هكذا

حفظت هذه العبارات واعتبرتها قمة البلاغة. فقط أرسلوني إلى اليابان وسوف أهبط في المطار لأسأل أول من أقابله:

ـ«هل البوشيدو تهب من هنا؟».

فينحني في إجلال ويقول:

ـ«بل هذه الكاميكازي يا أحمد سان».

فأخبره أنه توجد قرب الجبل امرأة مرحة، من ثم يوقف لي سيارة أجرة ونذهب معًا قرب الجبل لنراها. من يريد عبارات يابانية أخرى بعد هذا الحوار العميق؟

بالنسبة للإيطالية، كان هناك لغز من ألغاز المغامرين الخمسة يقوم فيه تختخ ورفاقه بزيارة إيطاليا، وأعتقد أنها تزامنت مع رحلة المؤلف الرائع محمود سالم الأولى لخارج مصر مما جعله يصمم على إقحام رحلته في القصة.. تناثرت عبارات إيطالية في القصة قمت بجمعها وحفظها جميعًا، وقد تواكب هذا مع برنامج ساحر في إذاعة الشرق الأوسط اسمه (خمس كلمات.. خمس لغات.. خمس دقائق).. في هذا البرنامج كنت تعرف خمس كلمات يوميًا وكيف تُنطق في خمس لغات مختلفة، وقد ظللت أتابع هذا البرنامج حتى توفاه الله..

الآن جاء دور اللغة الإنجليزية.. أزعم أنني أقرأ الإنجليزية منذ عام ١٩٧٣، وأترجمها منذ عشرين عامًا، ومعظم قراءاتي بالإنجليزية.. لقد صارت طبيعة ثانية لدي، وبرغم هذا ما زلت لم أسيطر عليها بعد، ومن حين لآخر أتلقى لكمة

قويـة في أسـناني بسـببها.. عندمـا تقـرأ إنجليزيـة قديمـة رصينـة مثـل إنجليزيـة شكسـبير أو حـتى ديكـنز، فأنـت تقابـل الكثـير مـن تعبيراتهـم (الفصحـى) الـتي تعجـز عـن فهمهـا تمامًـا، ثـم تقـرر أن تريـح نفسـك وتقـرأ الإنجليزيـة الحديثـة فتقابـل مصطلحـات وتعبـيرات مسـتحدثة تثـير الجنـون.. إنهـا لغـة لا تكـف عـن النمـو والانقسـام كمـزارع البكتريـا الـتي يـزداد عددهـا وأنـت ترمقهـا تحت المجهـر.. مثـلاً في السـبعينات مـع فيلـم (حمـى مسـاء السـبت) دخـل فعـل To travolt إلى اللغـة الإنجليزيـة، بمعـنى (الفـتى الذي يذهـب للديسـكو ليلـة السـبت ليسـتعرض براعتـه في الرقـص)، وأنـت تعـرف كيـف صـارت لفظـة Google فعـلاً لـم يكـن أحـد يسـتخدمه منـذ عـشر سـنوات..

هنـاك كلمـات لعينـة لا يمكـن تذكـر معناهـا أبـدًا.. مثـل Antediluvian و Aficionado و mawkish و . rodomontade. لـو قـرأت معناهـا ألـف مـرة في اليـوم، فلابـد أن أفتـح القامـوس في المـرة الأولى بعـد الألـف.. (أرجـو ألا تعلـق قائـلاً: أنـا مذهـول لأنـك لا تحفـظ معـنى هـذه الكلمـات السـهلة، لأن أعصـابي لـم تعـد تتحمـل!) الخلاصـة أنـني بعـد كل تلـك الأعـوام مـن الـصراع مـع اللغـة الإنجليزيـة ايقنـت أنـني لـن أملـك زمامهـا أبـدًا، حـتى لو كنـت أقـرأ كتابًـا كامـلاً فـلا أسـتعمل القامـوس إلا مرتـين.. هـذا لا يعـود لبراعـتي لكـن يعـود لتسـامح الكاتـب أو قلـة ثروتـه اللغويـة!

الآن جـاء دور الفرنسـية.. هنـا تـبرز كارثـة الأفعـال. كل العالـم يسـتعمل الفعـل (يـأكل) في ثـلاث صـور (أكل.. يـأكل.. سـوف يـأكل).. بينمـا الفرنسـيون عـلى الأرجـح عندهـم تصريـف لـ (كان يـأكل) و(كان يـأكل ثـم توقـف ثـم عـاد يـأكل) و(ربمـا يـأكل في

المستقبل القريب) و(كان ينوي الأكل ثم غير رأيه).. الخ.. الفرنسية مصابة بلعنة تصاريف الأفعال حيث لكل فعل ٨٥٨٧٧٧٨ تصريفًا في كل الأزمنة الممكنة. برغم هذا يمكنني أن أقرأ كتابًا بالفرنسية لكن يا لها من قراءة!..

يأتي دور الألمانية، وقد لخص لي صديق يجيد الألمانية المشكلة معها في جملة واحدة:

ـ«في الإنجليزية تستعمل أداة a و an و the وتنام قرير العين.. بينما في الألمانية تغرق في بحر من الـ Der والـ Dem والـ Ein وauf و an.. وأداة الجر تأتي بعد خمسين كلمة».

نفس ما قاله الساخر الأمريكي العظيم مارك توين: «للألمان طرق غير آدمية لتقطيع الأفعال.. إن الفعل يعاني ما يكفي في هذا العالم وهو كامل، فمن الوحشية أن تقطعه كما يفعل الألمان.. إنهم يأخذون جزءًا من الفعل ويغرسونه هنا كالخازوق، ثم يأخذون جزءًا آخر ويضعونه هنالك كخازوق آخر.. وبين الخازوقين يكومون الكلام الألماني».

الكارثة الأخرى التي لاحظتها هي أن كل مصطلح ألماني يطرد مصطلحًا فرنسيًا ببراعة تامة.. يعني لو عرفت ثلاث كلمات ألمانية جديدة فقد نسيت للأبد ثلاث كلمات فرنسية. نظرية المخ ذي الحجم الثابت كصندوق الحذاء لم تكن واضحة في ذهني، ثم بدأت أفطن إلى أنها صحيحة على الأقل معي. ووجدت نفسي ذات يوم أقول لفتاة فرنسية متأسفًا:

Ich bin desole!!

أي أنـني بـدأت الـكلام بالألمانيـة ثـم انتقلـت للفرنسـية.. مشـكلة أخـرى واجهتـني مـع الألمـان والفرنسـيين هـي أنـني أبـدأ الـكلام معهـم بطلاقـة مذهلـة، فيسـرون لمـدى ثقافـتي ويبـدءون الـكلام بطلاقـة وسرعـة، وهكـذا ينتهـي بي الأمـر إلى أن أتوسـل لهـم أن يشرحـوا مـا يريـدون بالإشـارات أو بالإنجليزيـة، لكـن مـن دون اسـتعمال لفظـة rodomontade لـو سـمحوا بذلـك..!

اللغـة الوحيـدة الـتي لـم تغـرني يومًـا بتعلمهـا هـي العبريـة، ولعـل السـبب هـو الكراهيـة الدفينـة داخـلي تجـاه إسرائيـل – وهـذا ليـس مـبررًا لعـدم تعلـم لغـة عـدوك - وكذلـك أنهـا اللغـة الوحيـدة في العالـم الـتي أشـعر أن المتكلـم بهـا يعـاني ويتعـذب ويتـأذى.. إنـه يتحـشرج ويتقلـص وجهه وسـط الـ (ليلاتـوف حاييم بشـلوم هلوعـوت).. هـذه لغـة منقرضـة تنتمـي لفئـة الطـوب والحفريـات أصروا عـلى إحيائهـا لأغـراض اسـتعمارية..

مـن جديـد أتسـاءل: هـل مـن يقولـون إنهـم يجيـدون سـبع لغـات يجيدونهـا فعـلاً؟.. ومـا هـو تعريـف الإجـادة؟.. ولـو كان هـذا صحيحًـا فما تركيـب عقولهـم ؟... أتمـنى لـو قابلـت كل واحـد منهـم عـلى حـده لأسـأله عـن معـنى لفظـة mawkish..

نعـم.. تعلـم اللغـات مهـم جـدًا لكنـه تجربة قاسـية، وسأسـمح لنفسـي بالتحفـظ تجـاه رأي أسـاتذتي الذيـن اعتقـدوا يومًـا مـا أنـني خلقـت لتعلـم اللغـات!

Mekarrenn Mefarrenn

يمكنك بسهولة أن تدرك أن زحف اللغات الغربية على اللغة العربية هو زحف مغولي لا يرحم، ويحرق القرى ويقتلع الزرع ويهلك الضرع. كم من مرة قرأت في ردود القراء (نايس.. ثانكس) و(كول) و(لول). وقد قرأت قصائد عصماء لشاب من أقاربي كتبها كلها بطريقة الفرانكو آراب على غرار (7bibty 2altli).. الخ. قال لي إن هذه الطريقة أكثر رشاقة وظرفًا. يبدو أن فكرة د. لويس عوض وطريقة أتاتورك في استبدال الحروف اللاتينية بالعربية تعود للحياة بقوة.

على كل حال نحن انتقائيون جدًا في هذه الأمور. يستمع المرء لأغان غربية أو موسيقا كلاسية، فيتهمونه بأنه خواجة ومتصنع ويذكرونه بأن (النبي عربي)، فإذا أبدى غضبه لأن فلانًا لم ينصب المفعول به أو يجزم فعلاً مضارعًا جاء بعد (لم)، قيل له : «ما تخليكش حنبلي كده».

كل هذا معروف وكُتبتْ عنه مقالات لا حصر لها، لكن ما ضايقني مؤخرًا هو زحف مغولي من نوع جديد: زحف العامية لتطيح بقلاع الفصحى. قد نقبل العامية المكتوبة في الحوار، وفي الشعر العامي، وفي كلمات معينة في السياق وغالبًا بين قوسين. كما يقول إبراهيم عيسى مثلاً: «بلاش دي.. تعال نتجدث عن كذا وكذا.. مشيها كذا». مجرد جرعات محسوبة تعطي حيوية وحميمية للكلام لا أكثر. أما أن تقرأ مقالاً

كاملاً بالعامية، فهذا بالتأكيد يشعرك بعدم راحة.. ثمة شيء ما خطأ. أن تقرأ عنوانًا في جريدة يقول: «السفير الإسرائيلي شغال نفسنة والوزير مكبر دماغه»، فهذا فتح جديد. لا أذكر أنني قرأت أي مقال سياسي مكتوبًا بالعامية الأمريكية مثلاً، ولم أقرأ عنوان جريدة بريطانية يقول:

«Bullocks! The government ain't gonna win the election»

سوف نقبل هذا باعتبار قطار التقدم أو الزحف المغولي - حسب رأيك – لا يمكن إيقافه، وهناك محاولات كثيرة سابقة، منها مثلاً كتاب (مذكرات طالب بعثة) للويس عوض الذي أثار دهشتي عندما قرأته أول مرة فوجدته بالعامية، وهو كتاب عتيق يرجع للخمسينات على ما أذكر. اليوم يمكنك أن تقرأ مدونات طويلة جدًا بالعامية على شبكة الإنترنت، ومع الوقت لم يعد هذا يبدو غريبًا أو يستحق التعليق.

جاءت المفاجأة فعلاً عندما قرأت أن د. علي الدين هلال أمين لجنة الإعلام وعضو المكتب السياسى للحزب الوطني، يطالب بعدم إلزام الطلبة المسيحيين بدراسة وحفظ الآيات القرآنية المقررة في مناهج اللغة العربية، وهو أمر غريب فعلاً. أولاً هذا القرار يعني تلقائيًا عدم استخدام آيات من القرآن في منهج اللغة العربية للدينين معًا، لأن المسلمين لن يدرسوا منهج لغة عربية مغايرًا لزملائهم المسيحيين. يعني هذا القرار معناه باختصار استبعاد القرآن الكريم من دراسة اللغة العربية. ثانيًا: كلنا يعرف أن الغرض من تدريس آيات قرآنية ليس الدعوة هنا، ولكن باعتبار القرآن الكريم هو أعلى مرجع ممكن للغة العربية، وقد تم تأسيس علمي

النحـو والبلاغـة اعتمـادًا عليـه. إن الارتبـاط قـوي جـدًا بـين القـرآن واللغـة العربيـة بحيـث لا يمكـن الـكلام عنهمـا بشـكل منفصـل في الحقيقـة. لا يمكـن أن نتصـور أن يـدرس إنسـان اللغـة الإنجليزيـة مـن دون أن يـدرس شكسـبير، ولا أن يـدرس الفرنسـية مـن دون راسـين وموليـير. بالطبـع لا يـدرس الإنجيـل أو التـوراه بالإنجليزيـة لأنـك تعـرف جيـدًا أن هـذه ليسـت لغتهمـا الأصليـة، وحـتى النـص العـربي يعـرف الجميـع أنـه مترجـم. وكمـا يقـول الزميـل محمـود الغنـام زميـلي في موقـع بـص وطـل؛ فقـد درس وحفـظ مقاطـع كاملـة مـن التـوراه عندمـا كان يـدرس اللغـة العبريـة ولـم يعـترض، لأن هـذا أمـر طبيعـي جـدًا.. لا يمكـن بالفعـل تخيـل دراسـة اللغـة العبريـة مـن دون تـوراه. دعـك مـن أن هـذه القضيـة لـم تـثر مـن قبـل، ولي أصدقـاء مسـيحيون كثيـرون سـمعت منهـم الكثـير ممـا يضايقهـم، فلـم أسـمع اعتراضًـا عـلى هـذه النقطـة بالـذات. إذن هـي منـاورة سياسـية سـتروق للغـرب والأمريـكان جـدًا، لكنهـا في الوقـت ذاتـه تشـارك دون قصـد في هـدم اللغـة العربيـة كمـا يحـاول أي واحـد آخـر.

الآن ننتقـل – بـلا فخـر - للويكيبديـا المصريـة، وهـي موسـوعة الإنترنـت الـتي قـررت أن تقـدم فتحًـا جديـدًا بـان تكـون كلهـا بالعاميـة. يقـول مبـدع الموسـوعة: « ويكيبيديـا مـصرى مكتوبـه باللغـه المصريـه الـلى بيتكلمهـا المصريـين و مكتوبـه زى مـا بيكتبوهـا فى جواباتهـم لبعضيهـم و فى حياتهـم اليوميـه».

ثـم يسـدي النصائـح بصـدد طريقـة الكتابـة، باعتبـار أن تدمـير اللغـة العربيـة لـه قواعـد صارمـة: مافيـش «ي» فيـه «ى» لإن «ى» مكتوبـه زى مـا بيكتبوهـا المصريـين, لكـن لـو عـاوز تكتـب «ي»

مافيـش مشـكله لأن «ي» و «ى» حـرف واحـد.

«تـه التأنيـث بتتكتـب حسـب النطـق يـا إمـا (ة) او (ه), يعـنى تتكتـب «انـا رايـح المكتبـه» و تتكتـب «انـا رايـح مكتبـة الكليـه». لـو فيـه كلمـه مـن أصـل عـربى او أى لغـه فيهـا حرف/نطـق الـث و بيتنطـق [س], يتسـاب زى ماهـو. و لـو بيتنطـق [ت] يتكتـب بـ الـت.

مافيـش همـزات قطـع و لا همـزات وصـل كلهـم «ا» (الا لـو فى نـص و اخـر الكلمـه), لكـن لـو عـاوز تكتـب همـزة قطـع جـوّا المقالـه, مافيـش مشـكله.

ثـم يتذكـر نصيحـة مهمـة: «فيـه شـوية صغـيره مـن المقـالات فى ويكيبيديـا مـصرى منهـا نسـخ بالأبجديـه اللاتيـنى لإن كان فيـه اقـتراح مـن سـنة ١٩٤٨ لكتابـه المـصرى بحـروف الابجديـه اللاتيـنى, و رغـم ان اغلبيـة المصريـين مـش بتفضـل الأبجديـه اللاتيـنى, لكـن فيـه مـواد قليلـه جـداً فى ويكيبيديـا مـصرى بحـروف الابجديـه اللاتيـنى (الفرانكـو) لـلى عـاوز يكتـب بيهـا..».

يمكـن بسـهولة اسـتنتاج أن الخطـوة التاليـة هـي اسـتعمال الحـروف اللاتينيـة لكتابـة العربيـة كمـا يحـدث في (الشـات)، ويبـدو أن نبـوءة نـزار قبـاني عـن يـوم يرغموننـا فيـه عـلى أن نقـرأ القـرآن بحـروف عبريـة ليسـت شـطحة شـعرية.

نعـم.. أعتقـد كمـا تعتقـد أنـت أن الأمـر ليـس مؤامـرة منظمـة، بقـدر مـا هـو نـوع مـن (الروشـنة) الشـبابية. لا أعتقـد أننـا نملـك اليـوم التفكـير المنظـم الـذي يسـمح بنسـج المؤامـرات، لكننـا نتحـرك بعشـوائية وحماقـة كمسـتعمرة نمـل مذعـورة، والنتيجـة

واحـدة هـي أننـا فعـلاً ندمـر لغتنـا بـلا توقـف.. دعـك مـن النزعـة العنصريـة – ولا أقـول الشـعوبية - الواضحـة في هـذه الويكيبديـا إذ ترفـض كل مـا هـو عـربي غـير مـصري حـتى (اليـاء المنقوطـة) الـتي تمـيز كتابـة الشـوام.

الموقـف لـم يحـدث مـن قبـل في التاريـخ، لأن الإنترنـت لـم تكن موجـودة، ولـم يكـن بوسـع كل شـخص أن يقـول مـا يريـد ليقـرأه الجميـع. ليـس الخطـر ببعيـد أو وهمـي، إذ يجـب أن تتذكـر أن اللغـة اللاتينيـة ماتـت مـع الزمـن لتحـل محلهـا العامية الـتي صارت اللغـة الإيطاليـة فيمـا بعـد، وعـلى مـن يرغـب في اسـتعادة اللاتينيـة أن يتخصـص في ذلـك. عـلى الأقـل نحـن نعـرف أن اللغـة العربيـة باقيـة مـا بقـي القـرآن، لكـن هـذا لا يلغـي الاحتمـال المخيـف: أن تصـير الفصحـى لغـة خاصـة لا يتعامـل بهـا إلا مـن يقـرأ القـرآن أو يـدرس دراسـات دينيـة، بينمـا المجتمـع والصحـف وكل شيء يتكلـم بلغـة النفسـنة وكـول آخـر حاجـة، ويكتـب قصائـد المتنـبي وامـرؤ القيـس بحـروف لاتينيـة، ومـن يعـترض هـو رجـل ضيـق الأفـق.

تاريخ للكبار فقط

إعجابي بدكتور يوسف زيدان لا يخفى على أحد. من العسير في هذا الزمن أن تجد من يدقق بهذا الشكل، ويلاحق كل معلومة في خبايا التاريخ، مبرهنًا في كل مرة على أنه خبير مخطوطات من الطراز الأول. إنه عملاق بكل تأكيد، ولا أعتقد أن كثيرين يرغبون في تفنيد هذه النقطة.

في عدد 22 سبتمبر من جريدة المصري اليوم يواصل سلسلته (أوهام المصريين) التي انتوى أن تكون سباعية من الحلقات، ويحمل المقال اسم (الناصر أحمد مظهر). مقال بديع كالعادة وينطق بموسوعية الرجل، ولكن المشكلة هي أنه يتناول تاريخ صلاح الدين الأيوبي كما ظهر في الفيلم الشهير الذي قام ببطولته أحمد مظهر، وهي نقطة نختلف معها منذ البداية.. من يأخذ التاريخ من الأفلام السينمائية فتلك مشكلته، ويكفي أن الدقة التاريخية معدومة تمامًا في أفلام ضخمة مثل (قلب شجاع) و(طرواده) كما أن كل ما ورد في فيلم (الشيماء) تقريبًا من خيال المؤلف.

ينتهز د. يوسف زيدان فرصة المقال ليسوي حسابه مع نظام عبد الناصر أولاً باعتبار الفيلم يدور عن عبد الناصر بشكل مستتر (وهذا رأيه وحقه طبعًا)، وفي الوقت نفسه يزيل عن أذهان العامة بعض الخرافات العالقة بشخصية صلاح الدين الأيوبي، وهو يبدأ الكلام قائلاً بقسوة: " والتجارة فى الأحلام،

من أربح التجارات (وأكثرها خِسَّةً)» وهذه العبارة تلصق تهمة الخسة بحشد لا بأس به من فنانينا الذين تعاونوا على تقديم هذا الفيلم؛ ومنهم نجيب محفوظ و عبدالرحمن الشرقاوى ويوسف شاهين، ثم يقول:

١- صلاح الدين الأيوبى، كان قائداً خائناً للسلطان نور الدين الذى أرسله على رأس الجيش من دمشق إلى مصر لتأمين حدودها ضد هجمات الصليبيين، فترك الأمر ومهَّد لنفسه السلطة.

٢- العجيب الدال على شخصية صلاح الدين، أنه كان فى الوقت ذاته قائداً من قوَّاد السلطان نور الدين (السُّنىِّ) ووزيراً للحاكم الفاطمى لمصر (الشيعى) مع أن الدولتين كانت بينهما خلافات لا تقلُّ عمقاً عما كان بين المسلمين أصحاب الأرض.

٣- بعد مناورات كثيرة، ومداورات، اضطر صلاح الدين الأيوبى إلى اقتحام القدس. ولم يفلح فى انتزاعها من قبضة الصليبيين إلا صُلحاً.. ثم أعادها الأيوبيون ثانية إلى الصليبيين كهدية، سنة ٦٢٨ هجرية!

كل هذا غير جديد وقد قرأته كثيرًا، وأذكر أن جريدة الدستور الإصدار الأول خصصت عددًا خاصًا لهذا الموضوع، ومنه عرفت أن لفظة (استكرده) العامية معناها (عامله معاملة الأكراد للمصريين) أي (خدعه). وصلاح الدين كردي طبعًا. أذكر أنني أرسلت وقتها خطابًا شبيهًا بمقالي الحالي للدستور لكن أحدًا لم يرد عليه. إن تفنيد هذه النقاط موجود ومتاح لمن أراد، ود. يوسف نفسه أول من حارب فكرة الزعيم الملهم

الخالي من أية عيوب، وقد كان صلاح الدين جزءًا من سيناريو انهيار الدولة العباسية لكنه في النهاية الرجل الذي استعاد القدس.

لا توجد شخصيات بيضاء أو سوداء في التاريخ، بل هناك الرمادي بدرجاته، وفيلم صلاح الدين لم يقدم سوى البياض الساطع الشبيه بأثواب الحجاج، بينما مقال د. يوسف زيدان لم يقدم سوى السواد. لا مشكلة عندي كذلك، فالرجل باحث مدقق ولديه أسبابه بالتأكيد، ولكن لماذا يجب أن يقرأ غير المتخصصين هذا الكلام؟ وماذا يمكن أن يستخلصه رجل الشارع منه؟.. سألخصه لك:

كل انتصاراتك وهمية يا صاحبي.. تاريخك ملفق.. أنت من (صنف واطي) غير جدير بشيء، وفي تكوينك الجيني خلل أصيل لا شفاء منه.. كف عن أغنية (من للقدس بعدك يا صلاح الدين؟) لأنه لا أساس لها من الصحة، وحتى اسمي القدس وأرشليم لم يكونا موجودين في ذلك الوقت. لقد أخذنا منك الأهرام وأعاجيب الفراعنة فقد صنعها رجال الفضاء أو قوم عاد، وحرب أكتوبر هي هزيمة مروعة، وتأميم القناة خطأ فادح، واليوم نثبت لك أنه لا انتصارات فيما تعتقد أنه تاريخك الإسلامي المجيد..

جلد ذات لا ينتهي.. قد يبدو لذيذًا شهيًا للمصابين بالماسوشية، لكنه يترك الباقين بلا أمل..

التاريخ علم يخضع – كأي علم - للجدل والتغيير والانقلابات، وأنا أؤمن أنه لابد من أن يتم طرح كل شيء في قاعات الدرس

والمحـاضرات، لكـني أؤمـن كذلـك بأنـه لا ينبغـي طـرح كل شيء عـلى صفحـات الجرائـد. مـا نفعلـه نحـن بهـذه الدقـة الأكاديميـة الرهيبـة هـو هـدم آخـر حجـر نقـف عليـه.. نحـرق بقايـا الطـوف الـذي يعـبر بنـا عبـاب المحيـط..

لقـد قـرأت في جريـدة الدسـتور الإصـدار الأول مقـالاً طويـلاً يثبـت أن سـعد زغلـول كان مصابًـا بـداء القمـار، وقـرأت في مجلـة الهـلال في الثمانينـات أن أحمـد عـرابي كان عـلى درجـة مـن الغبـاء والوهــن العقــلي ممــا أدى لفشــل ثورتــه، وقــرأت في الدســتور الجديـد عـن شـاعر الرسـول حسـان بـن ثابـت وكيـف أصابـه الرعـب أثنـاء الحـرب فتـوارى، وراحـت النسـاء يدافعـن عنـه!. السـؤال هنـا: مـا جـدوى معرفـة هـذه المعلومـات؟

لسـيد القمـني أعـداء كثـيرون، لكـني قـرأت للرجـل كثـيرًا فوجدت أن مـا يقـوم بـه بسـيط جـدًا: يبحـث في بطـون كتـب الـتراث عـن قصـص لا يعرفهـا الجميـع، ويقـدم كل شيء كمـا هـو دون انتقـاء ودون أن يبـدل شـيئًا.. يقدمـه لرجـل الشـارع الـذي سـوف يقـرأ المقـال ويصـدم بقصـص لـم يسـمعها مـن قبـل ولا يبتلعهـا (قصـة خالـد بـن الوليـد في حـروب الـردة، ومـيراث فاطمـة ابنـة الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم عـلى سـبيل المثـال) ويغضـب أو يصـدم أو يشـك أو يتظاهـر بأنـه لـم يقـرأ شـيئًا.. ربمـا تحمـر عينه ويتهـم القمـني بأنـه عـدو الإسـلام، وربمـا يتسـاءل في حـيرة (لمـاذا لـم يخبرونـا بـكل هـذه التفاصيـل في المدرسـة؟). رجـل الشـارع لن يبحـث أبـدًا عـن رأي مختلـف أو يحـاول تفنيـد المكتـوب. وهـذه هـي نقطـة الاختـلاف عـن الأكاديمـي الـذي يعـرف بالضبـط ثقـل – أو خفـة – المعلومـة الـتي يطالعهـا. مـكان كلام القمـني هـو

قاعـات التدريـس بالجامعـة والرسـائل الجامعيـة وأقسـام الأديـان المقارنـة.. الـخ.. لكـن ليـس بـين العامـة.. وكذلـك مقـالات د. يوسـف زيـدان كهـذا المقـال مكانهـا قاعـات التدريـس بقسـم التاريـخ في كليـة الآداب. أو عـلى الأقـل النـشر في طبعـات مخصصة للأكاديميـين.

هـل أقصـد أنـه لابـد مـن وجـود رقابـة عـلى التاريـخ الـذي يقـدم للنـاس؟.. أنـت قـد فهمتـني فعـلاً.

هنـاك مقـولات أؤمـن أن قيمتهـا لا تتجـاوز اهـتزازات طبلـة الأذن لسـماعها، ومنهـا أن الرقابـة شريـرة عـلى طـول الخـط.. الرقابـة الرشـيدة الواعيـة الأمينـة قـد تفيـد المجتمـع فعـلاً. مهما كلمتـني عـن حريـة العقـل فأنـا لـن أتـرك كتـبي الطبيـة بمـا فيهـا مـن صـور ومعلومـات صريحـة ليطالعهـا ابـني. سـوف أختـار لـه كتبًـا تقـدم معلومـة صحيحـة مهذبـة نوعًـا ولـن أكـذب عليـه أبـدًا. قـرأت كثـيرًا عـن الآبـاء المؤسسـين للولايـات المتحـدة، وخيـل لي أنهـم ملائكـة مـن فـرط حـرص المؤرخـين الأمريـكان عـلى عـدم إلصـاق أيـة نقيصـة بهـم. فقـط عندمـا تتوغـل في التاريـخ أكـثر تعـرف خلافـات إبراهـام لنكولـن مـع زوجتـه السـوقية، وفضائـح بنيامـين فرانكلـين وتومـاس جيفرسـون وأولادهمـا غـير الشرعيـين. فرانكلـين رتـب عمليـة اعتقـال ابنـه لأنـه مخلـص لبريطانيـا، وواشـنطن كان يتحـاشى أمـه لأنهـا كانـت تهينـه أمـام النـاس عمـدًا.. هـذه الأشـياء تعرفهـا بصعوبـة بالغـة مـع تأكيـد واضـح عـلى أن هـذه القصـص مختلقـة عـلى الأرجـح. إذن لمـاذا نـصر نحـن عـلى هـذه الدقـة الأكاديميـة العتيـدة؟

د. يوسـف.. لـو كان لي أن أبـدي رأيًـا فيمن هـو في مقامك وعلمك،

فلتسمح لي بأن أقول إنك اخترت المكان غير المناسب لطرح هذا الموضوع، واخترت المثال غير المناسب (فيلم سينمائي) والأهم أنك اخترت الوقت غير المناسب بتاتًا، في هذه الأيام السوداء وثقة المصري مهتزة بنفسه وعروبته، فلا يقف إلا على خيط اسمه (تاريخه المجيد). فلو برهنت له بشكل ما على أن تاريخنا ليس مجيدًا لهذا الحد، فأنت لا تساعده على أن يفيق.. أنت تمنحه ضربة الرحمة coup de grace التي ستدفعه إلى الهاوية السحيقة التي تنتظره في شغف..

كائنات مهددة بالانقراض

الحياة تزداد تعقيدًا بلا شك..في بعض النقاط صارت أسهل بكثير؛ فقد كان من المستحيل في السبعينات أن تتخيل – حتى لو كنت جول فيرن نفسه - أن تحمل هاتفك الخاص في جيبك وتطلب به أي شخص في بلدك أو حتى ألاسكا. كان الاتصال بالقاهرة أو الاسكندرية أو شبين الكوم يعني أن تذهب للسنترال في ساعة مبكرة من اليوم وتمضي أربع ساعات تنتظر في توتر، بينما الصوت الهادر الحكومي يدوي من آن لآخر عبر مكبر الصوت:

ـ«٤٥٤٣ مصر.. كابينة ٨».

فترى أحد الجالسين يهرع كالملسوع نحو كابينة ٨ ويغلقها عليه ويبدأ في الصياح، بينما كل الجالسين يسمعون تفاصيل ما يقال.. عشر ثوان ثم تنقطع المكالمة فيخرج خائب الأمل ليجلس بانتظار محاولة ثانية.. باختصار كان الاتصال بالقاهرة يعني أن تأخذ يوم إجازة من العمل، وأن تمضي خمس أو ست ساعات في مكان واحد.

أنت تعرف القصص من هذا الطراز، وتعرف كذلك عبارة الشيوخ المعتادة: كانت الحياة أبسط وأمتع برغم كل شيء. كنا نعرف كيف نستمتع. على كل حال يسهل أن تلاحظ هذا مع الأطفال.. اليوم يملك الطفل تلفزيونًا يرى فيه عشرات

القنـوات، وفي بيتـه كمبيوتـر ولديـه جهـاز بـلاي ستيشـن، لكنـه بالتأكيـد ليـس سـعيدًا بالقـدر المفـترض أو بالمقارنـة بأطفـال جيـلي، الذيـن كانـوا يقصـون الطائـرات مـن ورق الكراريـس، ويتيـه الواحـد منهـم فخـرًا ببندقيـة تقـذف قطعـة مـن الفلـين. لا أعتقـد أن أولادي أحبـوا أيـة لعبـة غاليـة الثمـن مثلمـا أحببـت أنـا الجمـل المحشـو بالقـش الـذي ابتاعـه أبي لي مـن جـوار السـيد البـدوي.

عندمـا كنـت أذهـب للمدرسـة كنـت أرى الهداهـد في الحديقـة المجـاورة للبيـت.. هـل مـا زالـت هنـاك هداهـد في العالـم؟... هـل انقرضـت؟... أشـياء كثـيرة انقرضـت مـن العالـم للأبـد، ومنها قـوس القـزح الـذي رأيتـه مـرارًا في طفولـتي، وأمطـار أكتوبـر.. دائمًا مـا كانـت الأمطـار تنهمـر مـدرارًا في أول أسـبوع لنـا في المدرسـة، فأيـن ذهبـت أمطـار اكتوبـر؟.. ولمـاذا ظللـت ألبـس القميـص قصـير الكمـين حـتى شـهر ديسـمبر مـن العـام المـاضي؟

الآن ينتابـني الذعـر عـلى كائنـات أخـرى مهـددة بالانقـراض. يجـب أن تسـجلها المنظمـات الدوليـة باعتبارهـا Endangered species وتنـشئ لهـا صندوقًـا خاصًـا عليـه شـعار آخـر غـير شـعار البانـدا إيـاه. خـذ عنـدك مثـلاً:

- بائـع الـدوم والحرنكـش والنبـق العجـوز الطيـب، الـذي يدفـع عربتـه أمـام المـدارس. يعـرف بدقـة تامـة موعـد الانـصراف مـن كل مدرسـة. يقـف هنـا حـتى يبيـع القليـل ثـم يهـرع بعربتـه نحـو مدرسـة أخـرى جـاء وقـت فتـح بابهـا. فشـلت في العثـور عـلى مراهـق يعـرف معـنى (النبـق) عـلى فكـرة.

- بائعـة البيـض العجـوز الـتي تمـر عـلى بيتنـا يـوم الجمعـة،

وتجلس على السلم وتتفاوض مع أمي التي تعد لها كوب الشاي، وتدور مباحثات معقدة طويلة جدًا تستمر ساعتين تقريبًا.. كل هذا من أجل عشرين بيضة.. بيض صغير الحجم كأنه بيض ثعابين يستحيل أن تراه اليوم. في المرة الأخيرة كانت منهكة جدًا مريضة جدًا، وطلبت من أمي أن تعد لها شايًا باللبن وتذوب فيه ملعقة من السمن البلدي لتغذيها!... إلى أن فهمنا كيف تتحمل شرب الشاي بالسمن كنا قد عرفنا أنها توفيت. لابد أن هناك أخريات حيات يجب الحفاظ عليهن...

- جيل الأمهات والخالات والجارات اللاتي يعرفن كل شيء.. يعرفن كيف يذوبن السمن لإعداد تلك المادة الملحية الشهية (المورته)، وتقدر الواحدة منهن على ذبح وتنظيف خمس دجاجات أو تنقية خمسة كيلوجرامات من الأرز، أو تنظيف كيلوجرامين من السمك، كل هذا في ساعتين لا أكثر. يطلب زوجها وجبة من الفشة واللسان ولحم الرأس فلا تجد مشكلة. تعرف جيدًا من أين تبتاع هذه الأشياء وكيف يتم طهيها.

الكحول الأحمر مشكلة حقيقية لأنني لا أعرف أي شخص يعرف أين يُباع، ومن دون كحول أحمر ينقرض ذلك الاختراع الجميل المدعو (سبرتاية) الذي يصنع أروع قهوة شممتها في حياتك.. طبعًا محاولة ملء السبرتاية بالبنزين هو الطريقة الأقصر لصنع قنبلة مولوتوف. لكنهن يعرفن أين توجد (السرجة).. هذا المكان الغامض الذي يبيعون فيه الطحينة والزيت الحار والكحول الأحمر. عندما يذهبن للسرجة يقمن كذلك بتحويج البن.. هؤلاء النسوة وقودهن في الحياة هو القهوة.. وبالطبع تقود القهوة لفن جميل آخر موشك على

الانقـراض هـو قـراءة الفنجـان.

هـؤلاء النسـوة يعرفـن بالضبـط مـا يجـب عملـه بقطعـة اللحـم الحمـراء الغضـة الباكيـة الـتي خرجـت لتوهـا مـن بطـن الأم، ولمـاذا يجـب تسـخين المـاء وقـت الـولادة.. يعرفـن مـا يجـب عملـه للمشـيمة ويعرفـن كيـف يحسـبن موعـد السـبوع. فيمـا يتعلـق بالمـوت هـن خبـيرات في حسـاب يـوم الأربعـين بدقـة ومـن دون اسـتعمال تقويـم، وكيـف يمكـن التخلـص مـن الليفـة والصابونـة اللتـين تـم غسـل الميـت بهمـا بالرمـي في مجـرى مـاء. إنهـن حريصـات عـلى أن يشـهقن عندمـا يوضـع الثـوم المقـلي مـع الكسـبرة عـلى الملوخيـة، وبعضهـن يصرخـن مولـولات لأن هـذه الطريقـة المثـلى كي لا (ترقـد) الملوخيـة. كانـت خالـتي تـصر عـلى أن البسـلة الناضجـة هـي (مومياء) وتعتـبر هـذه علامـة عـلى الجـودة، بينمـا كنـت أنـا أرمـق طبـق البسـلة في ذعـر شـاعرًا أن كلمـة مومياء لا تريحـني كثـيرًا. خالـتي كذلـك كانـت تجلـب لنـا في زيارتهـا أكياسًـا مـن الفـول السـوداني واللـب.. وفي موعـد سـنوي لا تتأخـر عنـه تقـرر أن تنظـف حقيبتهـا فتفرغهـا لتتناثـر بقايـا الفـول السـوداني المهشـم عـلى الجريـدة.. وكنـا – كأطفـال - نتصـارع حـتى المـوت لالتهـام هـذا الفـول. أتذكـر هـذا المشـهد كلمـا رأيـت محـاولات الـشركات النصابـة لتعبئـة بعـض الفـول المهشـم في أكيـاس بجنيـه.. أقسـم أن فـول خالـتي كان ألـذ بمراحـل وكان مجانيًـا.

هـؤلاء النسـاء يعرفـن كيـف يدمسـن الفـول ومـتى تضـاف ملعقـة سـكر في لحظـة اسـتراتيجية معينـة تضمـن لـه النضـج، كمـا أنهـن يعرفـن كل شيء عـن أبخـرة قـلي السـمك الـتي تصيـب بالجـذام

(نفس ما اعتقده صيادو النرويج في القرون الوسطى). أما عن عالم الحسد والعين والأعمال المدفونة فحدث بلا حرج.. لا يستطيع الساحر الشهير (كراولي) نفسه أن يزعم امتلاكه لربع خبرتهن. هذا الكنز سوف ينقرض أو انقرض فعلاً.. أليس هذا قاسيًا؟

- الآباء الغارقون بالعرق ذوو الكرش، الذين يعودون من العمل ظهرًا ومعهم بطيخة وجريدة.. يتوارى الصبية ذعرًا في غرفهم لأن هذا هو وقت تنفيذ الأمر لتهديدها المخيف (حاقول لأبوك أما ييجي). لابد أن يشرف على ذبح البطيخة كأنه يؤدي طقوسًا كهنوتية ما، ويتأكد بنفسه من أن البائع لم يخدعه. يجلس ليلتهم الغداء في نهم وينهيه بكمية هائلة من البطيخ، ثم يدخل لينام وقت العصر. لو لم تكن عندهم ثلاجة يتأكد من أنه دفن السكين في نصف البطيخة وغطاها بمنشفة حتى لا تشمها الشمامة.. لا أحد يعرف كنه الشمامة بالضبط، لكنها كائن سام يحب البطيخ جدًا...

عندما يصحو عند المغرب لن يذهب لأي عمل لأن الراتب يكفيه، بل سيجلس - بالفانلة الداخلية وسروال البيجامة الكستور - في الشرفة نصف المظلمة على الأرض يشرب الشاي بالنعناع.. لديه مذياع صغير يفتحه ليسمع آخر أخبار الجبهة ثم يعلن نظريته العميقة:

- «إسرائيل تنوي شيئًا ما... أنا متأكد من ذلك..».

فتدعو زوجته على إسرائيل.. وهكذا ينتهي الجزء السياسي من السهرة..

مـن مكانـه هـذا يديـر شـئون الأسرة ويصـدر تعليماتـه. جبـل مـن المسـئولية والثقـة والهيبـة. بعـد هـذا قـد يدخـل لينـام ثانيـة أو يـنزل ليقابـل أصدقـاءه في المقهـى، أو يذهـب للعـزاء.. هنـاك دائمًـا شـخص مـات في مـكان مـا ولابـد مـن العـزاء فيـه. هـذا الأب يجيـد كل شيء.. إصـلاح الصنابـير التالفـة وتغيـير فتيـل المنصهـر وإصـلاح لعبـة الولـد الزنبركيـة وتغيـير سـلك المكـواة..

أليس من الخسارة أن ينقرض هذا النوع أيضًا؟

الزمـن يتطـور.. قـد نتحمـل رحيـل مكوجـي الرجـل وصانـع الطرابيـش، لكـن هنـاك أنماطًـا مـن البـشر يؤلمـني بشـدة أن نفقدهـا، والأقـسى مـن هـذا أن تقابـل شـبابًا لـم يلقـوا هـذه النمـاذج قـط.. انقـراض هـذه الكائنـات الرائعـة هـو الأقـسى والأخطـر مـن انقـراض البانـدا أو ذئـب تسـمانيا أو النـسر الأمريـكي الأصلـع، لكنـك لا تسـتطيع أن تنـشئ محميـات طبيعيـة لتجـار الـدوم وبائعـات البيـض والخالات المحنـكات، أو أن تستنسـخهم. يجـب أن تقبـل دورة الزمـن الـتي تحتـم أن ننقـرض نحـن كذلـك.

لا تقرأ هذا المقال

في بداية عهدي بالقراءة، كنت أؤمن إيمانًا لا يتزعزع بأن أي حرف مكتوب هو شيء محترم جدير بالقراءة.. كل شيء يجب أن يُقرأ حتى النعي في الصحف، والكتابة على طوابع البريد، وحتى إجابات التلاميذ في أوراق الكراريس التي يُلف فيها الترمس.. أحيانًا ما تؤتي هذه العادة أكلها؛ كما حكى لي أحد أصدقائي الأطباء النابهين عندما لف له البائع البطاطا الساخنة في ورقة كتاب الأحياء للصف الثالث الثانوي.. وجد في هذه الورقة شرحًا مبسطًا بالعربية لعملية نسخ الحمض النووي وحركة الريبوزوم وتخليق البروتين.. الخ.. ولم يكن صاحبي من الطلبة المجتهدين أيام الكلية، لذا بدت له هذه المعلومات طازجة تمامًا وهدية من السماء، قرأها بعناية وهو يلتهم البطاطا الساخنة متأوهًا من حرارة البطاطا ومن نشوة المعرفة، وبفضلها وضع قدميه على بداية الطريق الصحيح وراح يقرأ المراجع الكبرى والدوريات العالمية، حتى صار من أهم الملمين بعلوم الهندسة الجزيئية والوراثة،وصرنا جميعًا نسأله عن أي ألغاز تقابلنا..

لكن هذه ليست القاعدة.. القاعدة هي أنك تقابل الكثير جدًا من الكلام الفارغ.. وعلى المرء أن يتعلم متى يتغلب على تقديسه الخالد للكلمة المطبوعة ويتجاهل الهراء. هناك ناقد كُتُب أمريكي شهير سأله الناس عن سر سرعته في القراءة، فقال:

ـ«أنـا أؤمـن أن الـكلام المهـم يجـب أن يقـرأ بأنـاة السـلحفاة، بينمـا يجـب أن تثـب عينـاك وثبًـا فـوق الـكلام الفـارغ.. الهـراء يجـب أن يُقـرأ بسرعـة الـبرق. وممـا يدهشـني أن أرى النـاس يطالعـون الصحـف حرفًـا حرفًـا مضيعـين في ذلـك عـدة سـاعات، لأنهـم لـم يتعلمـوا عـادة الوثـب فـوق الفقـرات».

الجـزء التـالي مـن المقـال ليـس فكـرتي للأسـف، ولكنـه فكـرة قرأتهـا منـذ زمـن سـحيق في مجلـة (المختار مـن الريدرز دايجسـت) لكاتـب أمريـكي مـا، ولـم أنسـها قـط... ليـس هـذا هـو نـص المقال الأصـلي حرفيًـا لأنـه ضـاع للأبـد، لكنهـا ذات الفكـرة مـن الذاكـرة، وأنـا أراهـا تدريبًـا ممتـازًا عـلى التجاهـل الـذي نريـد أن نتعلمـه:

لا تقرأ هذا المقال..

الأمـر سـهل.. اقلـب الصفحـة وينتهـي الأمـر.. وفي عـصر الكمبيوتـر لا يقتـضي الأمـر سـوى أن تضغـط عـلى زر Home أو زر back أو تطفـئ الجهـاز بالكامـل وينتهـي الأمـر..

هلـم.. أنـا كاتـب المقـال وأؤكـد لـك أنـك لـن تجـد علمًـا ثمينًـا أو منفعـة عظيمـة أو تتعلـم شـيئًا جديـدًا.. لـن تجـد كلامًـا يبكيـك أو يجعـل الشـعر ينتصـب عـلى ظهـر سـاعدك مـن القشـعريرة.. لـن تجـد مـا يثـير لديـك ذكـرى قديمـة.. وبالتأكيـد لـن تجـد مـا يدفعـك للتفكـير..

هلم.. توقف الآن..

ماذا تحاول أن تعرفه فوق ما عرفت؟..

يقولـون إن الفضـول قتـل القـط، ومـن الواضـح أنـك قـط فضـولي كبـير.. أنـت تخـشى أن تـترك المقـال فيكـون فيـه شيء مهـم يعرفـه الآخـرون وتجهلـه أنـت..

ربما دعابة قوية.. ربما سر عن أحد المسئولين..

دعني أؤكد لك أن المقال لن يتضمن هذا على الإطلاق..

هـي مجـرد كلمـات.. كلمـات.. كلمـات تجدهـا في كل مـكان وعـلى الجـدران وعـلى أبـواب دورات الميـاه وفي ملفات الحكومـة.. بالتأكيد ليسـت مقتطفـات مـن كتـاب سـماوي، ولـم تقتطـع مـن شـعر المتنـبي أو شكسـبير.. لا تحـوي في سـطورها نظريـة أينشـتاين.. بـل هـي أقـل أهميـة مـن فاتـورة البقـال.. فاتـورة البقـال لهـا أثـر مهـم وخطـر، وهـي قـادرة عـلى جعلـك تطلـق السـباب أو ترتجـف أو تـصرخ أو تبـكي.. لكـن كلمـاتي لا تقـدر عـلى ذلـك..

لقد كتبت خمسمائة كلمة وأنت مصر على القراءة..

هذا غريب فعلاً.. أنت إنسان غريب..

كلمـاتي ليسـت فاتنـة ولا تتمايـل مثـل مارلـين مونـرو أو حـتى شـعبان عبـد الرحيـم.. إنهـا مفككـة وسـخيفة وخاليـة مـن الحـرارة..

ما أسهل التوقف عن قراءة كلمات خالية من الحرارة..

هل قرأت هذا الجزء كذلك؟.. أنت إنسان مستحيل فعلاً..

فقـط لمسـة.. لمسـة للصفحـة أو زر الفـأرة أو ضغطـة عـلى زر الكمبيوتـر أو ضغطـة عـلى جفنيـك... عندهـا سـوف تنتـصر.. تنتصر عـلى الكلمـات وعـلى الضعـف البـشري..

لا أعـرف مـا كنـت سـأفعله لـو كنـت مكانـك، لكنـني مـن يختـبر الآخـر لـذا أشـعر أنـني الأقـوى والأقـدر والأذكى.. أنـت تعـرف كيـف كان أسـتاذك واسـع العلـم وهـو يختـبرك..

يبدو لي الأمر سهلاً.. هلم.. مرة واحدة..

لـم تبـق إلا بضعـة أسـطر والفرصـة توشـك عـلى الضيـاع مـن يـدك.. عندمـا ينتهـي هـذا المقـال لـن تكـون هنـاك أعـذار، وعليـك أن تعـرف أنـك فشـلت في اختبـارك الأول في تحـاشي قـراءة الـكلام الفـارغ..

بعـد هـذا سـوف تقـرأ المشـاكل العاطفيـة والنعـي في الصحـف والإعلانـات المبوبـة والتهـاني الـتي ينشرهـا المسـئولون المنافقـون مـن أجـل مسـئولين أكـثر نفاقًـا.. سـوف تقـرأ كل شيء حـتى محـاولات أخيـك ذي السـبعة أعـوام الشـعرية..

لهـذا لا يصـير كل إنسـان نـاشرًا.. فقـط النـاشر هـو مـن يملـك القـدرة عـلى عـدم قـراءة بـاقي المقـال.. صحيـح أنـه يضيـع الكثـير مـن الكنـوز لكنـه يرحـم نفسـه مـن هـراء أكـثر.. وعندمـا يكتشـف فيمـا بعـد أنـه أضـاع مـن بـين يديـه يوسـف إدريـس أو تشـيكوف أو إيـزاك أزيمـوف، فإنـه يقنـع نفسـه بأنـه (بناقـص كاتـب)..

الفقرة الأخيرة والإنذار الأخير..

لقـد انتهيـت فعـلاً... هأنـذا أضعـت وقتـك في قـراءة كلام فـارغ لا معـنى لـه، وانهلـت عليـك باللـوم، واتهمتـك بالفضـول وضعـف الإرادة... ثـم هأنـذا قـد انتهيـت فمـاذا اسـتفدت أنـت؟؟؟؟؟!!

مقال مثير للغرائز

نعـم .. انـت لـم تخطـىء قـراءة العنـوان، فقـد قـررت أن أبـدأ ثـورة جديـدة في عالـم عناويـن المقـالات. وسـيكون عـلي أن أتحمـل مـا سـوف يكتبـه موقـع (بـص وطـل) عـلى الهامـش الأيـسر للصفحـة: (أحمـد خالـد يكتـب مقـالاً مثـيرًا للغرائـز).. فكـرت في عنـوان أكـثر جاذبيـة مثـل (مقـال جنـسي فاحـش)، لكـني بهـذا أختـبر صـبر موقـع (بـص وطـل) أكـثر مـن الـلازم، ومـن الـوارد جـدًا أن تصلـني تلـك المكالمـة الجافـة المهذبـة الـتي تخـبرني أن التعامـل معـي قـد انتهـى..

هنـاك كذلـك شيء مضحـك في العناويـن مـن هـذا القبيـل ولا أعـرف كيـف أصفـه. في فيلـم أمريـكي تقـول البطلـة إن البطـل يحتـسي الـشراب في فنـدق حقـير. في اللقطـة التاليـة نـرى لافتـة كتـب عليهـا (فنـدق حقـير) ونـرى البطـل مـن النافـذة يـشرب بـلا توقـف..

بالطبـع لا أشـك في موقفـك الأخـلاقي، فأنـت هنـا بدافـع الفضول وليـس دافـع الحماسـة للعنـوان، ولا أشـك في انـك تقـرأ المقـال لتعـرف النقـاط الـتي سـتهاجمني عليهـا بعـد الانتهـاء منـه، لكـن لا تنكـر أنـه عنـوان قـادر عـلى الجـذب..

في أيـام الكليـة، كان صديـق عمـري (أيمـن الجنـدي) يصنـف الكتـب الـتي لـم يعـد بحاجـة لهـا، فكنـا نأخذهـا لعـم (محمـد)

بائـع الكتـب القديمـة العجـوز ليبدلهـا لنـا. وجدنـا لـدى (أيمـن) كتابًـا قديمًـا ممزقًـا بـلا غـلاف.. تصفحنـا محتوياتـه فوجدنـاه يـشرح بالتفصيـل الممـل التكويـن الهيـكلي للجنـة المركزيـة للاتحاد القومـي.. ممـا يعـني أن هـذا الكتـاب غـير قابـل للتبديـل تحـت أيـة ظـروف، مـا لـم نجـد قارئًـا شـغوفًا بالاتحـاد القومـي عاشـقًا لـه مـن الطـراز مقـروح الجفـن المسـهد إيـاه. هنـا تنـاول صديقـي الثالـث الكتـاب وبيـد واثقـة قطـع قطعـة مـن الـورق الأبيـض بـذات الحجـم، وألصقهـا في موضـع الغـلاف، ثـم بخـط جميـل جـدًا كتـب العنـوان: (العشـيقة وسـفاح النسـاء)، وحـتى لا يكـون كاذبًـا فتـح الكتـاب وراح يكتـب في صفحـات متفرقـة:

ـ«قالت العشيقة: أنا خائفة من سفاح النساء».

ـ«وهنا ظهر السفاح ليفتك بالعشيقة».

العشـيقة وسـفاح النسـاء عنـوان عبقـري جـدًا، يداعـب الغرائـز المنحطـة كلهـا: الجنـس والعنـف، ويـدل عـلى موهبـة خارقـة في الارتجـال. عندمـا حملنـا الكتـاب لعـم (محمـد) اتسـعت عينـاه حماسـة وأخـذ هـذا الكتـاب بالـذات، وقـال لنـا:

ـ«سوف آخذ أي عدد من الكتب الشبيهة بهذا!».

لا أعـرف مـن الـذي ابتـاع كتـاب (العشـيقة وسـفاح النسـاء) في النهايـة، ليجـد أنـه يـشرح تكويـن الاتحـاد القومـي، ولا أعـرف مـا فعلـه ولا مـا قالـه، لكـني أعـرف أنهـا كانـت عمليـة نصـب محكمـة.. فقـط لسـت نادمًـا عليهـا لأن مـن ابتـاع هـذا الكتـاب اسـتحق مـا حـدث لـه..

لا أدعي كما قلت أنك هنا لذات السبب، وإنما هو الفضول لمعرفة ما يمكن أن يقوله مقال يحمل هذا الاسم الصادم. الآن قمنا بجذبك للصفحة، وهذا فتح في حد ذاته..

كانت هذه مقدمة طويلة للمقال، أما عن المقال نفسه فيتلخص في المشكلة التالية:

قال وزير الصناعات الزراعية والسلع الماليزي إن ماليزيا تخطط لزيادة إنتاج المطاط بحلول عام 2012 من 1,4 طن لكل هكتار سنوياً في الوقت الحاضر إلى 1,87 طن لهكتار واحد، وأضاف أن الوزارة تعمل حالياً على إنتاج استنساخ أفضل لشجرة المطاط من أجل زيادة الإنتاج، وترصد إنتاج المطاط في المزارع الكبيرة والصغيرة لينتظم بشكل أفضل. إن ماليزيا ثالثة أكبر الدول المنتجة للمطاط بعد تايلاند وإندونيسيا. على الرغم من ذلك، فإن الإنتاج سجل تراجعاً بنسبة 24,4 بالمائة على أساس سنوي، بحسب إدارة الإحصاءات الماليزية في بيان صدر عنها.

السؤال هنا هو: لماذا تراجع الانتاج برغم خطة وزارة الزراعة الطموح؟... وكيف تتقدم ماليزيا تايلاند في إنتاج المطاط؟

كما ترى هو موضوع حي وشائق ومثير، ولهذا بذلت جهدًا كبيرًا حتى أقتادك إلى هذه الصفحة، ورأيك يهمني فعلاً.. أتوقع منك أن تكتب تعليقًا يقنع الموقع بأن هناك من يقرأ لي بنهم.. ربما كانوا يستعملون عداد صفحات أو تقنية مماثلة، لكن التعليقات تساعد إلى حد ما في قياس رواج المقال..

هناك تعليق أبدي.. أو كما يقولون Omnipresent (كلي

الوجـود) يقـول:

ـ«بصراحة مقالة جامدة آخر حاجة..».

هـذا التعليـق سـوف تجـده في كل مقـال في كل أسـبوع تقريبًـا، ولا أفهـم بصراحـة سـبب وضـع كلمـة (بصراحـة) في كل تعليـق لكنهـا الحقيقـة بصراحـة. (آخـر حاجـة) هـي التطـور الطبيعـي لكلمـة (طحـن) الـتي صـارت قديمـة و(خنيقـة)، وهنـاك تطـور آخـر بـذيء جـدًا لا يمكـن ذكـره.. كان هنـاك تعليـق عـلى مقـال عـن وبـاء خطـير يقـول: «بصراحـة يـا جماعـة الوبـاء ده جامـد آخـر حاجـة».، وهـي معلومـات مهمـة كمـا تـرى. لكـن هـذا التعليـق أفضـل عـلى كل حـال مـن الشـتائم، وهنـاك قـارئ يعلـق دومًـا بـ (اتقـوا الله في عقـول الشـباب) دون أن يغـير حرفًـا سـواء كان المقـال عـن غـزة أو آخـر ألبـوم لتامـر حسـني أو ارتفـاع أسـعار الطماطـم. ذكـرني هـذا بالمواطـن البريطـاني الـذي يحتفـظ بلافتـة كتـب عليهـا: (يـا للعـار!!) يسـتعملها في كل مظاهـرة عـلى سـبيل توفـير النفقـات. وقيـل إنـه اسـتعملها عندمـا خرجـت البلـدة ترحـب بمرشـحها في الانتخابـات.

أما لو كان التعليق من فتاة (روشة) فغالبًا هو:

ـ«بصراحة نايس وكول آخر حاجة».

أو :

ـ«ثانكس».

التعليقات على قصص الستريبس غالبًا لا تخرج عن اثنين:

ـ«هههههههههههههه.. بيحصل فعلاً».

ولا أعـرف مـا هـو الـلي بيحصـل فعـلاً.. لكنـه بيحصـل فعـلاً بالتأكيـد..

أو :

«باااااااااااااااااااااااااااااايخة.. ايه السماجة دي؟».

هناك قارئ لا يكف عن الشكوى في كل المقالات:

ـ«أرجـو مـن إدارة الموقـع نـشر تعليقـي كامـلاً وأن تلـتزم الأمانـة».

وهـو نفـس القـارئ تقريبًـا حـتى إنـني لا أعـرف سـبب اضطهـاده بهـذا الشـكل. واضـح أنـه لـم يسـتطع نـشر حـرف منـذ إنشـاء الموقـع.

أعتقـد أن بوسـع مـن يـنزل التعليقـات أن يكتـب دراسـة ممتـازة طريفـة فعـلاً، لكـن هـذا ليـس موضوعنـا عـلى كل حـال.. كل مـا أطلبـه هـو أن تعلـق تعليقًـا طيبًـا مـن طـراز (كـووول آخـر حاجـة) يجعـل الموقـع أقـل رغبـة في طـردي، ثـم أن تخـبرني برأيـك بصـدد المطـاط المالـيزي لأن الموضـوع سـاخن وحيـوي وخطـير.

مقالات نقدية

بحب السيما

مع الاعتذار طبعًا للفيلم الجميل الذي قدمه (هاني جرجس فوزي)، لكني لم أجد عنوانًا أفضل خاصة والفيلم يحكي في ثلثه الأول طفولتي تقريبًا. أشك فعلاً في أن أي مخلوق على ظهر الأرض أحب فن السينما كما كنت في صباي، وكنت انبهر بكل شيء فيها.. بالخدوش على جانب الكادر وعلامة تغيير البكرة، والجلوس في الظلام بانتظار الشعاع المحمل بالأحلام الملونة القادم من نافذة العرض.. عشقت صوت هدير الآلة واهتزازها ورائحة التبغ (كان التدخين مسموحًا به في دور السينما وقتها) وذرات الغبار المتطايرة في الشعاع..

فيما بعد قدم اثنان من عاشقي السينما هما تارانتينو ورودريجز فيلم Grindhouse وهو يحمل تحية خاصة لأفلام السبعينيات، وقد حرصا على أن يحمل الفيلم المصور حديثًا نفس الخدوش واهتزاز آلة العرض كما كان يحدث في الأفلام القديمة. نفس طريقة كتابة التترات وصوت المعلق.. حتى ان الفيلم يحترق ويذوب في إحدى اللقطات. بالطبع كنا جميعًا نعشق عبارة (العرض القادم) الذي لم نكن نعرف أن اسمه (تريلر)، وبسبب هذا الحب قدم المخرجان المجنونان إعلانات عن عروض قادمة لأفلام لم توجد قط، على غرار (ماشيتي) و(لا تفعل).. الخ..

لم يقتصر حبي على ما نراه على الشاشة بل امتد إلى دار

السينما نفسها.. كل ركن فيها حتى الحمامات عطنة الرائحة وحتى العامل الذي يقودك لمقعدك.. كنت اعتبر هؤلاء سحرة ممن يملكون مفاتيح هذا العالم الخيالي، فلا استبعد أنه بعد ما نرحل يجلس طرزان وجيمس بوند وفرانكنشتاين وشيرلوك هولمز مع هؤلاء.. بينما يذهب أحد عمال السينما لشراء شطائر للعشاء، ويجلس الجميع يثرثرون ويمزحون.. طبعًا يتوتر الجو نوعًا عندما يصل الكونت دراكيولا، لكنه لن يمتص دماء زملاء المهنة طبعًا!

أذكر جولاتي حول الأبواب الخلفية لدار السينما بحثًا عن مفاجأة من السليلويد.. هناك أجزاء فيلم تنقطع ويتخلص منها العامل.. هكذا أجمعها أنا واهرع للبيت منتشيًا لأقوم بدراستها بالعدسة.. ثم أضعها في مركز بؤرة عدسة وأضيء مصباحًا خلفها ليصير عندي فانوس سحري مرتجل، وأدرس الكادر على الجدار..

ذات مرة وجدت كادرات من فيلم ملون أجنبي.. وحتى في سن العاشرة كنت أعرف أن هذه لقطات مضغوطة من فيلم سينما سكوب، وفيما بعد تقوم عدسة (الهيبر جونار) بفرد الصورة لتصير عريضة. كانت اللقطة التي لفتت نظري تظهر رجلاً أفريقيًا يلبس جلد نمر ويحمل رمحًا وخلفه مشاعل، وهناك ترجمة عربية تقول: «النائمون؟.. عملية سهلة».

هكذا راح خيالي يعمل كالمجنون لتخيل ما كان قبل وبعد هذه الجملة. هذا الرجل كما هو واضح قاتل.. على الأرجح هو من قبيلة من أكلة لحوم البشر. هناك من كلفه بمهمة مهاجمة معسكر فيه نائمون.. سوف يذبحهم وهم نيام

وبالتالي هي عملية سهلة. هل المعسكر الذي ينوي مهاجمته خاص بالرجل الأبيض أم بقبيلة أخرى؟.. لو كانت قبيلة أخرى فلماذا يكلفه شخص آخر بهذه المهمة؟

جربت مرارًا أن أسأل كل اصدقائي عما إذا كانوا رأوا أفلامًا فيها عملية سهلة تتضمن قتل النائمين. لكن لم أجده قط..

أعتقد أنني رأيت ما يشبه هذا الجنون بوضوح في (بحب السيما) وبوضوح في (سينما بارادايسو).. ويبدو أن الطريق كان ممهدًا أمامي لأصير مخرجًا أو مصورًا أو عامل عرض، لكني صرت طبيبًا في ظروف مجهولة..

لم يأت هذا الحب من فراغ، إنما تكون نتيجة لولع أبي الخاص بالسينما. كان يوم الثلاثاء هو بداية الأسبوع السينمائي، فكان أبي يصحبني معه للسينما في ذلك اليوم كل أسبوع. في البداية كان يصحب الأسرة كلها، ثم وجد أن العبء المادي والمعنوي ثقيل وأننا معًا سنكون اخف بكثير..

تبدأ الأمسية بشراء شطائر السجق من مطعم قرب دار السينما، ثم نتجه لنجلس في مقاعدنا.. كلمني أنا عن الإثارة العظيمة للانتظار في الظلام، ثم تسمع هدير آلة العرض وتظهر بطاقة الرقابة ثم أسد مترو جولدوين ماير على الأرجح.. ربما حاملة الشعلة الخاصة بشركة كولومبيا أو كرة يونيفرسال الأرضية أو جبل باراماونت.. هناك أفلام كانت تظهر رجلاً وامرأة يحملان شعلة وهذه علامة شركة موسفيلم السوفييتية. تخصصت سينما أوديون في عرض هذه الأفلام وفي ذلك الوقت كانت كلها حربية.

المهـم أن أبي كان مـن يختـار الفيلـم طبعًـا، وبالطبـع لـم يكـن مولعًـا بأفـلام طـرزان أو أفـلام كنـج كونـج.. لـذا لاحظـت أشـياء معينـة..

في البدايـة كانـت هنـاك دائمًـا دبابـات وهنـاك ضبـاط نازيـون وصلبـان معقوفـة.. هنـاك دائمًـا قصـف مدفعيـة وطـيران وجيوش تلتحـم ببعضهـا، ثـم يظهـر هـذا الجـنرال أو ذاك ليـصرخ:

ـ«يجب الاحتفاظ بالجسر!».

لكنهـم لا يحتفظـون بالجـسر، وتنهـال عليـه القنابـل ليمـلأ الدخـان الشاشـة.

كنـت أسـتمتع بهـذا كلـه، وعرفـت معلومـة جديـدة هـي أن الأفـلام الـتي تعـرض في السـينما حربيـة دائمًـا، فـلا يمكـن أن تكـون عاطفيـة أو غنائيـة أو مضحكـة كالـتي يعرضهـا التلفزيـون. السـينما مـكان تجلـس فيـه في الظـلام تـأكل السـجق وتشـاهد النازيـين.. لا يوجـد لهـا تعريـف آخـر.

أبي كان يعشـق الأفـلام الحربيـة، وكان يحـكي لي عـن موقعـة نورمانـدي واقتحـام برلـين وغـزو فرنسـا.. الـخ.. كأنـه يحـكي قصـة حـب قديمـة.. بـل إنـني بلغـت درجـة رأيـت فيهـا نفـس المعركـة بعـدة أسـاليب سـينمائية. الأسـلوب الأمريـكي المبهـرج المـليء بالبـذخ، والأسـلوب السـوفييتي الكئيـب بإيقاعـه البطـئ.

لم يلحظ أبي التغيرات التي طرأت علي مع الوقت..

لقـد صرت أتـصرف كضابـط نـازي فعـلاً.. أمـشي مثلهـم وأمـد يـدي مشـدودًا وأصيـح:

ـ«هايل هتلر!».

لقد صار العالم بالنسبة لي دبابات محترقة وطائرات تقصف المشاة في الصحراء.. وألغامًا تنفجر فتطير السيقان. كانت أمي هي أول من لفت نظر أبي إلى تأثير هذه الأفلام علي، فقد صرت أمشي متخشبًا، وأرسم الصليب المعقوف على كل كراساتي، وأؤدي التحية النازية ألف مرة في اليوم.. دعك من أنني بدأت أحلم بوضع القط في الفرن، وصرت أطلق على مدرس اللغة العربية لقب (الفوهرر). سألني أبي عما إذا كنت أحب الأفلام الحربية فقلت في حماسة:

ـ«يا!».

سألتني عما إذا كنت أرغب في مشاهدة نوع آخر من الأفلام فقلت (نايـن).. قال لأمي إن كل شيء على ما يرام.. لكن أمي لم تبد مقتنعة..

خيرته أمي بين اختيار نوعية أخرى من الأفلام أو الامتناع عن الذهاب للسينما نهائيًا.

هكذا وجد أبي أن عليه أن يقلع عن غرامه الشديد بالأفلام الحربية ويكتفي بما يراه منها يوم الأحد في التلفزيون في برنامج اسمه (السينما والحرب). رحت احاول إقناعه بمشاهدة أفلام طرزان فلم يبد متحمسًا.. كان يرى أن أسخف شيء في الدنيا أن يجلس المرء يشاهد رجلاً يحيا وسط القرود ويتدلى بحبل من الأشجار..

يوم الثلاثاء التالي اصطحبني أبي للسينما وابتاع لي السجق،

ثم حدثني عن أهمية أن نرى أنواعًا أخرى من السينما فليست المدرعات هي كل شيء.

الفيلم الذي شاهدناه في تلك الليلة السوداء كان يظهر امرأة تركض صارخة في صالة دارها.. تدخل غرفة نومها وتغلقها. طبعاً لينفتح ستار المخدع ويخرج من خلفه الأخ كرستوفر لي والدم يسيل من جانب فمه.. له أنياب كالذئاب وعينه حمراء كعين طالب ثانوية عامة ليلة الامتحان..

هذا هو الأخ دراكيولا..

ولم أتصور قط أن العالم يحوي هذا القدر من الرعب، ولفترة لا بأس بها كنت أنام لصيق أبي في الفراش كخفاش.. يتقلب فأتقلب معه. ينهض فأنهض معه.. وصرت أمقت أي مكان أكون فيه وحدي في أي وقت. برغم هذا أثار دهشتي أنني راغب في المزيد.. أريد رؤية أكثر..

فيما بعد عرفت أن معظم هذه الأفلام هي من إنتاج شركة هامر البريطانية، وهي أفلام سوف تضحكك جدًا لو رأيتها اليوم لكني وقتها لم أكن على أي استعداد للضحك... هكذا بدأت حقبة جديدة لأفلام من نوعية (دراكيولا مصاص الدماء) و(دماء من أجل فرانكنشتاين) و(ليلة الموتى الأحياء).. الخ...

مع الوقت أدرك أبي أنني راغب فعلاً في مشاهدة هذه الأفلام فبدأ يصحبني بانتظام...

ومع الوقت لاحظت أمي أنني تخليت عن نازيتي لأمور أهم.. صحيح أنني بدأت أتغير وصحيح أنني كدت أمتص دم

أختي وهي نائمة، وكدت أقتل ابن خالتي بوتد في صدره (عصا المكنسة المكسورة)، ورحت أحلم بقضاء النهار كله نائمًا في تابوت..

هذا التشبيت الشديد أدى في النهاية إلى أن أكتب قصص الرعب.. ربما كانت وسيلة لأكون خلف المدفع ولا أظل أمامه.. أن تخيف الناس يوهمك بأنك أكثر شجاعة..

في المدرسة الإعدادية ظهر اختراع جديد تحدث الكل عنه. الاختراع يدعى بروس لي وهو رجل آسيوي نحيل عصبي يصدر صوتًا كالبط المختنق ويقدر على هزيمة عشرة رجال.. دخلت السينما لأكتشف هذا البروس لي ويبدو أن كل صبية تلك الفترة دخلوا معي، وهكذا بدأت حمى بروس لي في حياتنا جميعًا.. والنتيجة هي أنوف تنزف وركب محطمة وكسور ورضوض لدى الجميع..

هنا كان أبي قد كف عن اصطحابي للسينما.. لم يعد يذهب للسينما بتاتًا كأنه تشبع أو سئم اللعبة، وتركني أختار الأفلام التي تروق لي.ولا شك أن أول رحلة قمت بها للسينما مع رفاقي كانت مغامرة مثيرة فعلاً... الفيلم كان يدعى (ما زلت أدعى ترينتي) وقد حكيته لكل مخلوق على الأرض حتى أوشكوا على الانتحار..

في الأعوام التالية رأيت كل الأفلام الغربية الرديئة التي يطلقون عليها (افلام الحرف ب). وسر الحرف (ب) هو أن هذه الأفلام لم تكن تعرض وحدها وإنما ضمن برنامج من فيلمين، وكانوا يطلقون على الفيلم الأول (أ) دلالة على أنه أرقى

واكـثر تكلفـة. لا ننكـر أن الأفـلام (ب) مسـلية ولهـا مـن يحبونهـا.. إن في تفاهتهـا سـحرًا خاصًـا بـلا شـك. فمـن أفـلام العصابـات التي تضـع مخططًـا محكمًـا للسـطو عـلى المـصرف، إلى أفـلام المـواد المشـعة الـتي تكمـش الأشـخاص أو تكبرهـم أو تجعـل المـوتى يصحـون مـن قبورهـم. وحـتى أفـلام الكونـج فـو ذات الصبغـة الصفـراء البنيـة المميـزة..

كانـت هنـاك ممثـلات تخصصـن في أفـلام حـرف (ب)، ويطلقـون عليهـن (ملـكات الـصراخ)، لأن دور الفتـاة منهـن لا يزيـد عـلى أن تـصرخ وأن تكـون حسـناء. ومـن العلامـات السـهلة عـلى هـذه الأفـلام أن تـرى صـورة وحـش بحـري أو مسـخ مـن تحـت الأرض أو هيـكل عظمـي حـي، يحمـل فتـاة صارخـة.

إن الـدب لا يفـرق بـين فـتى وفتـاة في الالتهـام، ولعلـه يفضـل الفـتى لأن عضلاتـه أضخـم وغالبًـا مذاقهـا أفضـل، أمـا عـن الجمـال فـلا شـك أنـه يفضـل دبـة تشـبهه.. وبالتأكيـد يـرى الفتـاة قبيحـة كالدببـة. هـذا هـو المنطـق السـديد.

يحـاول صانعـو هـذه الأفـلام إقناعنـا بـأن هـذه المسـوخ والوحـوش تفضـل الفتـاة الحسـناء البشريـة مثلنـا.. وهكـذا تـرى صـورًا غايـة في الغرابـة مثـل كائـن المريـخ الـذي لـه ثـلاث أعـين ويخـرج لسـانه مـن قفـاه ولـه ذراع واحـدة في منتصـف صـدره.. هـذا الكائـن يحمـل فتـاة حسـناء صارخـة ويفـر بهـا بينمـا البطـل الأرضي يطلـق عليـه مسـدس اللـيزر. مـاذا سـيفعله المسـخ المريخـي بهـا؟.. بالتأكيـد هـو بحاجـة إلى فتـاة مريخيـة مثلـه لهـا ثـلاث أعـين ويخـرج لسـانها مـن قفاهـا ولهـا ذراع في منتصـف الصـدر. لابـد أن هـذه الفتـاة تبـدو لـه مقـززة..

هكـذا قضيـت شـبابي في عشـق مسـتحيل لهـذا الاخـتراع السـاحر.. احتجـت لوقـت طويـل جـدا حـتى تعلمـت أن أتعامـل معـه بحياديـة أو لا مبـالاة. اليـوم لـم أعـد أهتـم بـه بنفـس الجنـون السـابق، وكعـادة كبـار السـن أقـول لنفـسي: لـم يعـودوا يصنعـون الأفـلام كما كانـت في المـاضي. ربمـا هـذا صحيـح وربمـا ذبلـت حلمـات التـذوق عـلى لسـاني.. تلـك الـتي كنـت اذوق بهـا هـذه الأفـلام في مراهقـتي. وربمـا أن كـثرة وسـائل الترفيـه وسـبل الإبهـار جعلـت السـينما بـلا طعـم، بعـد مـا كانـت نافـذة السـحر الوحيـدة في مراهقـتي..

لا أعـرف حقًـا.. لكـني أتمـنى يـوم ثلاثـاء واحـدًا مـن أيـام أبي.. وشـطيرة سـجق وفيلمًـا مـن أفـلام الحـرب العالميـة الثانيـة يـدور حـول جـسر مـا يحـاول النازيـون نسـفه.

إنفكتوس: أنا قبطان سفينة روحي

وأنا في مخالب الظروف المهلكة

لم أجفل أو أصرخ عاليًا..

وتحت هراوات القدر

غطت الدماء رأسي..

لكنه لم ينحن..

لا يهم أن البوابة ضيقة

وأن لفافة الأحكام مفعمة بالعقوبات ضدي..

فأنا سيد قدري..

وأنا قبطان سفينة روحي

هذه أبيات من قصيدة للشاعر البريطاني (هنلي) كتبها عام ١٨٧٥، وتحمل عنوان (إنفكتوس Invictus) أي (الذي لا يقهر) باللاتينية. هذه الأبيات التي كان نلسون مانديلا أو (ماديبا) يطالعها في سجنه الطويل لتمنحه الأمل، هي مصدر هذا العنوان الغريب للفيلم الذي قدمه الممثل والمخرج العالمي (كلينت إيستوود) العام الماضي. الشاعر كتب هذه الأبيات

وهـو في المستشـفى ينتظـر بـتر سـاقه، بينمـا مانديـلا كان يطالعهـا كل ليلـة في زنزانتـه الـتي قـضى فيهـا ٢٧ عامًـا، قبـل أن يخـرج منهـا ليحكـم جنـوب أفريقيـا.

شـاهدت الفيلـم مؤخـرًا فأعجبـت بـ (مورجـان فريمـان) في دور مانديـلا أداء وكتابـة. يصعـب أن تتخيـل أي ممثـل آخـر يمكـن أن يقـوم بهـذا الـدور سـوى فريمـان، وإن كانـت اللهجـات غـير المقنعـة للأفريكانـس والسـود سـببًا رئيسًـا في تعكـير مزاج المشـاهد الغـربي، دعـك مـن إلمـام المشـاهد الغـربي غـير الأمريـكي بقواعـد لعبـة (الرجـبي) الـتي يتمحـور حولهـا الفيلـم ممـا جعلـه يكتشـف عـدة أخطـاء. وهـو كذلـك يحفـظ شـكل (فرنسـوا بينـار) كابـتن فريـق الرجـبي لجنـوب أفريقيـا، فلـم يسـتطع أن يبتلع إسـناد دوره لمـات ديمـون. إن حـرص المشـاهدين الغربيـين عـلى الدقـة قـد يبلـغ درجـة زائـدة عـن الحـد، مثـل سـماع لحـن أغنيـة لـم تكـن قـد كتبـت وقـت أحـداث الفيلـم، أو أداء جنـدي للتحيـة بطريقـة لـم تكـن مسـتعملة في حـرب معينـة. هـذا يكفـي لإفسـاد أي فيلـم بالنسـبة لهـم. يقولـون مثـلاً إن فريـق نيوزيلنـدا في الحقيقـة لـم يكـن بكامـل لياقتـه كمـا ظهـر في الفيلـم، لأن أفـراده كانـوا مصابـين بتسـمم طعـام وكانـوا يفرغـون معدتهـم طيلـة المبـاراة. طبعًـا هـذه أمـور لا أعـرف عنهـا أي شيء، لهـذا أخـذت مـن الفيلـم مـا يكفيـني بالضبـط.

في الفيلـم مباريـات رجـبي عديـدة وطويلـة، وهـذه قـد تبـدو مشـكلة لأننـا لا نعـرف شـيئًا عـن هـذه الرياضـة بالغـة العنـف، لكنـك تكتشـف أن بوسـعك المتابعـة. أو تكتفـي بعبـارة ذكيـة وردت في الفيلـم: «كـرة القـدم لعبـة سـادة يمارسـها البلطجيـة..

الرجـبي لعبـة بلطجيـة يمارسـها السـادة!».

يبـدأ الفيلـم في الشـهور الـتي تلـت تـولي مانديـلا سـدة الحكـم بعـد مغادرتـه السـجن في جزيـرة (روبنـس). البيـض (الأفريكانـس) الذيـن اعتـادوا أن يكونـوا الظالمـين قلقـون جـدًا مـن أن يلعبـوا دور المظلومـين في الدولـة الجديـدة. عنصريـة مضـادة تولـد في كل مـكان مـع رغبـة جامحـة في معاقبـة هـؤلاء.. حالـة قـرف عامـة مـن كل مـا هـو أبيـض. في مشـهد افتتاحـي مهـم يدخـل مانديـلا ليقابـل موظفـي الحكومـة البيـض المتحفزيـن الذيـن جمـع أكثرهـم حاجياتـه تأهبًـا للطـرد، فيقـول لهـم: «مـن يشـعر بأنـه غـير قـادر عـلى العمـل في هـذه الحكومـة الجديـدة يمكنـه الرحيـل، لكـن عـن نفسـي أؤكـد أنـني سـأكون شـاكرًا لمـن يختـار البقـاء منكـم ليسـدي لوطنـه خدمـة كـبرى.. مـن يعتقـد أنـه سـيدفع ثمـن ولاءاتـه أو آرائـه السـابقة، عليـه أن يعـرف أننـا نبـدأ عهدنـا بالصفـح والنسـيان».

نتابـع تفاصيـل حيـاة الرجـل الـذي لا ينـام.. والـذي يثير نشـاطه ذهـول الحـراس المحيطـين بـه. إنـه لا يتعـب فعـلاً، وكلمـا أبـدى أحدهـم دهشـته قـال لـه: لقـد اسـترحت في السـجن ٢٧ عامًـا.. فلـم أعـد راغبًـا في مزيـد مـن الراحـة!. يعتـبر نفسـه مجـرد أب لأسرة تتكـون مـن ٤٢ مليـون طفـل كمـا قـال مـرارًا.. النتيجـة هـي أنـه يغيـب عـن الوعـي مرتـين خـلال الفيلـم بسـبب الإرهـاق الزائـد.

مـا يبحـث عنـه مانديـلا هـو مـشروع موحـد.. مـشروع يجمـع بـين السـود والأفريكانـس ويجعلهـم يدركـون أنهـم أبنـاء وطـن واحـد..

الفرصة التي سنحت له هي عندما قرر أعضاء الحكومة السود تسريح فريق الرجبي المدعو (سبرينجبوكس).. إن نتائجه سيئة في اللعب ويخسر دائمًا.. دعك من أن أفراده جميعًا بيض باستثناء لاعب واحد. يتم الاقتراع وتأتي الموافقة بالإجماع على التسريح. يسمع مانديلا بالقرار فيهرع ليقتحم المجلس.. تذكره سكرتيرته بأن عليه أن يخضع لقرار الأغلبية، فيقول لها: «هذه من اللحظات التي تكون فيها الأغلبية على خطأ.. ويكون على القائد أن يخبر الناس بالصواب».

ويقول للمجتمعين: «أنتم اخترتموني قائدًا فدعوني أقود.. نحن نبني بلادنا وبحاجة إلى كل قطعة قرميد أمامنا، حتى لو كانت هذه القطعة قد استخدمت في ضربنا في الماضي. لو أننا عاملنا البيض كما تريدون لعرف العالم أنهم كانوا محقين عندما اعتبرونا متخلفين ووحوشًا.. ولبرهننا للبيض على أن معهم حقًا في خوفهم منا».

هكذا يقدم درسه الأول: الجماهير قد لا تكون على حق طيلة الوقت. من الخطأ أن ندع شهوة الانتقام تجرفنا. إن جنوب أفريقيا سوف تستضيف كأس العالم في الرجبي العام القادم ١٩٩٥، لذا يراهن مانديلا على أن بلاده ستفوز بكأس العالم بهذا الفريق الأبيض الضعيف. يضع كل ثقله لمساندته، ويتعلم الكثير عن هذه اللعبة العنيفة.. بل إنه يرغم الفريق على القيام بجولات في القرى والأحياء الفقيرة ليختلطوا بالفقراء السود ويعلموهم اللعبة ويصلوا إلى قلوبهم.

الفيلم يتحدث كثيرًا عن العلاقة بين رئيس الجمهورية وكابتن الفريق (بينار) – الممثل مات ديمون - الذي يحاول مانديلا أن

يبث فيه روح الثقة، ويخبره بقصيدة (إنفكتوس) التي جعلته يتحمل ثلاثة عقود في الزنزانة. ويصل الفيلم ذروته العاطفية عندما يزور (بينار) الزنزانة الضيقة التي قضى فيها مانديلا أعوام سجنه، والحشية على الأرض التي كان يقضي الساعات جالسًا عليها يقرأ ويتأمل. نسمع القصيدة تتردد طيلة الوقت: «فأنا سيد قدري..وأنا قبطان سفينة روحي».

تتم المباراة النهائية في جو حماسي.. فريق جنوب أفريقيا أمام فريق نيوزيلندا المرعب المعروف باسم (كله أسود). ونرى طقوس تخويف العدو النيوزيلندية التي هي رقصة حرب من رقصات قبائل الماوري تدعى (الهاكا). تبدأ المباراة الطويلة جدًا والتي توحد فعلاً بين البيض والسود.. لا يوجد أبيض ولا أسود. هناك شعب واحد اسمه شعب جنوب أفريقيا.. وتنتهي المباراة بالفوز لفريق جنوب أفريقيا فيتعانق الجميع بعيون دامعة. ما زالت مشاكل الفقر والجريمة كثيرة جدًا.. لكنها على الأقل لن تضم الصراعات العرقية بينها..

مانديلا شخصية نادرة لا يجود بها الزمن إلا كل مائة عام، لكنك تدرك بوضوح أن الزنزانة كان لها فضل كبير في صياغة هذا الرجل. وينتهي الفيلم وأنت تتذكر كلمات القصيدة بصوت مورجان فريمان الرجولي المؤثر:

وأنا في مخالب الظروف المهلكة

لم أجفل أو أصرخ عاليًا..

تحت هراوات القدر

غطت الدماء رأسي..

لكنه لم ينحنِ..

٧١١

عندما تقدم فيلمًا تسجيليًا عن شيء جميل فأنت قد تزيده بريقًا وألقًا وقد تفسده تمامًا. قناة ناشونال جيوجرافيكس مثلاً تقدم لنا روائع الطبيعة بالاستعانة بأعظم مصورين ومخرجين على ظهر البسيطة.. النتيجة معروفة للجميع ولا تحتاج إلى شرح. هكذا نحن نتكلم عن روعة الموضوع وروعة تقديم روعة الموضوع!

هذا الفيلم التسجيلي الذي قدمته قناة الجزيرة عن قناة (٧١١) – ينطقونها سفن إليفن - كان قطعة من الفن الرفيع، ويسهل جدًا أن نتخيل ما كان سيحدث لو قدم بالطريقة المعهودة.. مذيعة تصبغ شعرها بالأكسجين وتحمل ميكروفونًا وتوجه أسئلة سخيفة، ثم تلتقي بهذا المسئول أو ذاك من مسئولي الشباب في الإدارة المحلية لسمنود. باختصار: برنامج سخيف لا يذكره أحد ويُذاع في ساعات العصر الميتة.

لحسن الحظ وقع هذا الموضوع في أيدي شباب متحمسين أحبوه جدًا، وكانوا يعرفون ما يفعلون.. البراء أشرف مخرجًا وكاتبًا.. وعلي عبد المنعم كاتبًا.. وهاني فخري مصورًا.. وهاني فريد مونتيرًا. النتيجة هي فيلم تسجيلي ساحر مدته ساعة، وأعتقد أنه جدير بالمركز الأول في أية مسابقة عادلة للأفلام التسجيلية. يجب أن أؤكد هنا أنني لا أعرف أي واحد من هؤلاء الشباب، وأنني بحثت كثيرًا عن رقم هاتف الأول لأبلغه بمدى

إعجابي بهذا العمل.

موضوع الفيلم هو قناة تلفزيونية يعرفها سكان سمنود بمحافظة الغربية جيدًا.. قناة خاصة تُذاع عن طريق الكابل اسمها (٧١١)، وهي محلية جدًا لا تهتم إلا بما يدور في محيط سمنود..

لمن لا يعرف؛ سمنود مركز من مراكز محافظة الغربية يقع قرب المحلة الكبرى. كانت عاصمة الأسرة الثالثة في مصر القديمة وتعج بالآثار، وكانت فيها وقفة مهمة أثناء رحلة العائلة المقدسة، كما أن اسمها يُذكر كثيرًا في تاريخ الحملة الفرنسية على مصر لأنها كانت تتعاون مع المنصورة البلدة المشاغبة المجاورة.. من أبناء سمنود (مصطفى باشا النحاس) و(د. نصر فريد واصل) والصحفي (جلال دويدار) والفنانون (أمينة رزق) و(عبد المنعم إبراهيم) و(سهير المرشدي). لكن سمنود في النهاية بلدة صغيرة جدًا وفقيرة، لهذا يغدو من الغريب أن تكون لها قناة محلية خاصة..

يلتقط الفيلم هذه الجوهرة النادرة المثيرة ويقدمها لنا. يعرفنا على الثلاثة المسئولين عن هذه القناة والذين ينتجون ويصورون ويكتبون ويخرجون ويبثون.. ويفعلون كل شيء. صاحب الفكرة نفسه من الطراز الذي يوشك على الانفجار من المواهب التي لا يعرف كيف يقدمها.. صحيح أنها مواهب خشنة جدًا وفطرية ولم تحظ بثقافة تصقلها، لكنه نموذج مثير بكل تأكيد.. عمل (مونولوجست) لفترة، وهو شاعر عامية ومصور هاو ومخرج، ولديه خلفية ممتازة في الإلكترونيات.. هذا هو بطل الفيلم الأول الذي يجعلنا الفيلم نعيش معه

ونركب معه (المكنة)، ونلعب معه الكرة الشراب في الحارة، ونجلس معه على المصرف ليلاً نشرب الشاي.. حالم لا يتوقف عن الحلم، لدرجة أنه يكتب مسلسلاً إذاعيًا يمثل فيه ويخرجه، ويحلم بأن يحوله يومًا ما إلى مسلسل تلفزيوني. يصور حفل زفاف في حارة.. حفل زفاف شعبيًا من الطراز الذي تحضره الحارة كلها ويلبس فيه العريس بذلة سكرية اللون وتؤجر العروس ثوب الزفاف. يجلس مخرجنا مع طفلة جميلة ليعلمها كيف تقدم فقرة دعاية للقناة، و(يتقصع) في دلال ليعلمها كيف تقول (عقبال عندك يا أم فاروق).. ثم يصوب الكاميرا على الطفلة ويصور أداءها مرارًا. كل شيء حقيقي.. كل شيء له رائحة.. كل شيء أصيل.. الألوان الفاقعة (الملغوصة) نوعًا والذوق الشعبي البسيط.. إن الفيلم يقترب جدًا من الناس البسطاء، ولأنه أحبهم حقًا فقد استطاع أن يجعلك تحبهم...

إنهم طبيعيون جدًا، وقد صار من رابع المستحيلات أن تقابل شخصًا طبيعيًا في هذا الزمن. لا توجد ذرة إدعاء لديهم.. وهذا ما نجح الفيلم في اقتناصه.

مع الوقت كون الرجل فلسفته الخاصة بالحياة، وهي فلسفة طريفة بدورها تنبع من عمله:

ـ«أنا حطيت كل أحلامي على الدسك توب.. معنديش أحلام مؤجلة. بس باقلب أحلامي زي ما بنقلب الوصلة.. كل شوية أجرب حلم جديد..».

ثم يتحدث عن السادة البعيدين جدًا عن عالمه:

ـ«هما عندهم الواسطة... واحنا عندنا الوصلة».

إنـه موجـود.. إنـه حـي.. يتكلـم وهنـاك مـن يسـمع صوتـه وينتظـره.. فليذهـب السـادة إلى الجحيـم. كل سـمنود تعـرف قنـاة ٧١١ وتنتظرهـا وتحـول المـؤشرات لهـا. لكـن القنـاة لا تقتـصر عـلى الإعلانـات، فهـي تقـدم المباريـات الرياضيـة وتقـدم الأفـلام الأجنبيـة الـتي يحملهـا مـن الإنترنـت.. ولأنـه يعـرف مـا يريـده النـاس ولأنـه منهـم، فهـو يجـري عمليـة حـذف للقطـات العاريـة مـن الأفـلام بنفسـه.

إنهـم يلعبـون بالنـار ويقتربـون منهـا جـدًا.. لابـد أن أكـثر مـن جهـة أمنيـة تراقـب قنـاة كهـذه خشـية أن تتطـرق إلى مواضيـع سياسـية، لكنـه لا يقـع في الفـخ.. يؤكـد مـرارًا (مـا لنـاش دعـوة بالسياسـة) وهـو الدهـاء المـصري القديـم الـذي يتعلمـه المصريـون مبكـرًا.. ابتعـد عـن الحكومـة بـأي شـكل.. احـن رأسـك لحامـل مفاتيـح الفرعـون كي يظـل بيتـك مفتوحًـا.. لتكـن لـك حياتـك الخاصـة المنفصلـة عنهـا. هـو كذلـك يعـرف أن ذئـب (المصنفـات الفنيـة) يعـوي ويتشـمم الهـواء، ولسـوف يخـرج للظفـر بهـم بالتأكيـد.. لابـد أنهـم أجـروا بروفـة ذلـك اليـوم مـرارًا..

قنـاة يقدمهـا ثلاثـة مـن متوسـطي التعليـم في حـارة. الدليـل الحـي عـلى أن الشـعب المـصري مشـاكس واسـع الحيلـة ولا يمـوت أبـدًا. عندمـا لا يصـير العالـم عالمـه فهـو يخلـق عالمًـا خاصًـا بـه.

هـذا مـا أعجبـني في قنـاة ٧١١، أمـا عـن النعومـة والحـب اللذيـن قـدم بهمـا الموضـوع فحـدث بـلا حـرج. بمزيـج مـن حساسـية

الصحفي والفنان والصائغ تمكن صناع الفيلم من التقاط هذه الجوهرة، ولمدة ساعة شعرت بأنني أحب سمنود وأحب هذه الحارة وهؤلاء القوم. تحية للبراء أشرف وعلي عبد المنعم وكل من قدموا هذا العمل، ليصنعوا هذا الجمال المركب الذي لا يوصف ولكن يُشاهد.

إميلي: عشق التفاصيل الصغيرة

أفسحوا الطريق للجمال.. للدانتيلا.. للعذوبة والشعر..

أفسحوا الطريق للذائذ الحياة البسيطة العابرة التي لا يمكن وصفها..

أفسحوا الطريق للسمراء الرقيقة ذات العينين الواسعتين والنظرة الماكرة الطريفة..

هذه هي إميلي بولان.. وقبل أن أحكي لك عن إميلي، يجب أن أحكي لك عن الطريقة التي قابلتها بها.. قابلتها بطريقة غير شرعية للأسف..

لست من المولعين بالقرصنة والاعتداء على حقوق الملكية الفكرية للآخرين، وقد اكتويت بنارها عشرات المرات، لكن بالنسبة لتعامل المصريين مع السينما وعالم البرمجيات فقد قلت رأيي أكثر من مرة؛ وهو أن بعض البرامج الأصلية ثمنها أغلى من جهاز الكمبيوتر نفسه. ماذا سيبقى في مصر وإلى أين ستذهب ثقافة الكمبيوتر لو تعاملنا مع القانون حرفيًا؟.. حتى الكمبيوتر في مباحث المصنفات عليه برامج منسوخة.. مستحيل أن يحدث العكس.. للأسف نكتشف هنا أن القرصنة جعلت كل شاب في مصر يجيد استعمال الكمبيوتر والإنترنت..

الأفلام كذلك عالم آخر..إذا لم يعرض الفيلم في مصر

فعليك لكي تراه أن تشتريه بمبلغ لا يقل عن ١٨٠ جنيهًا للفيلم الواحد.. طبعًا مستحيل. البديل هو أن تحمله من الإنترنت على شكل تورنت، وهي طريقة يعرفها المتعاملون بها ولها قوانينها الخاصة. أنا أجد أن المشاهد الغربي لن يُرهق كثيرًا بدفع مبلغ كهذا، وفي الوقت ذاته هو يضخّ المال الكافي كي تستمر العملية الإنتاجية، فيقدم الفنانون مزيدًا من الأعمال الجيدة. لكن الأمر يختلف في مصر بسبب فارق الدخل الرهيب، ويكون عليك أن تلجأ لسياسة تحميل التورنت. وعلى كل حال جمهور السينما هو جمهور السينما لم ينكمش. بينما صارت لدى الشباب المصري ثقافة سينمائية لا بأس بها تتضمن السينما الصينية والألمانية والفرنسية واليابانية وقد أثروا تجربتهم فعلاً، وهناك أكثر من مخرج مصري شاب تكونت ثقافته من السينما المكسيكية بالذات.. هل رأيت في حياتك فيلمًا صربيًا في دور العرض؟؟

لهذا أقر وأعترف أنني لم أر الفيلم الفرنسي الجميل (المصير الرائع لأميلي بولان) بالطريقة القانونية المعتادة، ولو أردت فلم أكن لأراه أبدًا.. حصلت على نسخة من الفيلم عن طريق صديق عزيز لن أذكر اسمه هنا طبعًا، فهو مديح يبدو أقرب للتشهير.. كما يكتب لص المصرف في الصحف: شكرًا للزميل (أبو بطيخة) الذي سهل عملية فتح الخزانة لي..

منذ اللحظة الأولى لهذا الفيلم الساحر تجد ثقبًا في عالم الرتابة اليومية.. عالم الملل والقسوة والوجوه التي لا تتغير..

إن الفيلم يبدأ بلقطة شاعرية لشرشف منضدة في مقهى في مونمارتر، والهواء يداعب الشرشف لكنه لا يستطيع أن يطيره

لأن هناك كأسين فارغين.. الفيلم كله يعتبر تنويعًا على هذه اللقطة الشاعرية، وفي نفس الوقت نرى ذلك السيد الوقور الذي عاد من جنازة أعز صديق له فجلس متأثرًا ليمسح اسمه من دفتر العناوين بالممحاة، وفي نفس الوقت نعرف أن كروموسوم السيد بولان X قد التحم مع كروموسوم السيدة بولان.. والنتيجة هي جنين XX أي فتاة صغيرة.. إن الحياة تنتهي من هنا وتبدأ من هنا.. لا يمكن الإمساك بها أو حصارها أبدًا...

هذا هو جحر الأرنب الذي ندخله فلا نخرج أبدًا..

للمخرج جان بيير جونيه فيلم آخر شهير جدًا اسمه (دليكاتسن) أو (مطعم الوجبات الجاهزة)، وهو فيلم مسل جدًا وغريب جدًا.. كوميديا سوداء عن عالم مستقبلي تسوده المجاعة، حيث نجد بناية يمارس سكانها القرعة لاختيار من يأكلونه في كل مرة.. سوف ترى في هذا الفيلم معظم من تراهم في (إميلي) لكنه برغم هذا لا يعلق بالذاكرة كثيرًا..

فيلم إميلي الذي أنتج عام ٢٠٠١ يختلف تمامًا... إنه يرينا نمو الطفلة الجميلة الفضولية إميلي التي لا تكف عن اللعب واستكشاف العالم. أبوها طبيب أطفال غير بارع. أحيانًا يفحص قلبها.. هي تفرح لذلك فيدق قلبها بسرعة، لهذا يفترض أن قلبها مريض جدًا... ويحيل طفولتها سجنًا. وهذا هو ما سيقودنا لتلك الشخصية المتوحدة الانطوائية: إميلي.

بالنسبة للفيلم الإنسان هو مزاجه الخاص وما يحبه وما يكرهه.. مثلاً نعرف من اللحظة الأولى أن أمها تحب

الاستحمام.. تحب القطط الصغيرة.. وتكره أن يلمس أحد يدها وتكره شعور الجلد المجعد الشمعي بعد الحمام. بالنسبة للأب طبيب الأطفال، هو يحب السباحة ويحب أن يرص آلاته في صندوق الآلات، ولكنه يكره التصاق المايوه بفخذيه عندما يخرج من الماء.

إميلي لديها سمكة ذهبية ذات ميول انتحارية، لذا تفر من الحوض وتسقط تحت الثلاجة، فتبدأ الفتاة في صراخ لا ينقطع لأن السمكة تموت.. وفي النهاية يرفع الأب الثلاجة بكوريك السيارة، وتعود السمكة لحوضها، لكن الثمن فادح فعلاً.. الأم أصيبت بانهيار عصبي تقريبًا، والخلاص الوحيد هو إعادة السمكة للنهر.. أه يا صديقي لو رأيت هذه اللقطات..!... المزيج العبقري من الجمال والشاعرية والسخرية والكوميديا.. شيء لا يوصف..

لقد كبرت إميلي وصارت فتاة رقيقة بالغة الخجل، تلعب دورها أودري تاتو. إنها تعيش حياة انعزالية تمامًا.. ككل المتوحدين خلقت لنفسها حياة كاملة بعيدًا عن الناس. إنها تعمل ساقية في مقهى في حي مونمارتر اسمه (الطاحونتان). وهو مقهى حقيقي تم التصوير فيه. من الأشياء الطريفة المتعلقة بهذا المقهى، أن السياح المعجبين بالفيلم راحوا يقصدونه ليلتقطوا الصور ويحتسوا القهوة، ومع الوقت علق المقهى ملصقات الفيلم وصار من المعالم السياحية المهمة لمونمارتر. عندما زرت باريس عرفت أن صديقي الأديب (أحمد مراد) - صاحب (فرتيجو) و(تراب الماس) - زار المقهى من قبل والتقط له عددًا من الصور. وصف لي الطريق وكيف

أصل له، لكن خليطًا من ضيق الوقت والنسيان مع هواية فقدان الاتجاهات التي أجيدها ببراعة جعلني لا أتمكن من الوصول له.

مقهى الطاحونتين هو ملتقى الأفراد غريبي الأطوار مثلها، ولسوف نعرف خلال دقائق ما يحبه وما يكرهه كل منهم. ولا تنس أنها فتاة ناضجة الآن.. جربت بعض العلاقات العاطفية لكنها لم تشعر بأي شيء على الإطلاق... لا تفهم ما يقصدونه بمتعة الجنس والشهوة. الخ.. من الغريب أن جرعة الجنس في الفيلم عالية، لكنه يتعامل مع الجنس بلا اكتراث وبشيء من الملل، كأنه لعبة سخيفة أخرى يهوى البعض ممارستها.. وبالفعل نشعر بلا مبالاة إميلي وبراءتها تجاه ما تراه من حولها. ما تحبه فعلاً هو أن تمسك بملعقة تهشم بها القشرة على وجه (الكاستارد). ما تحبه إميلي فعلاً هو أن تغرس أناملها في جوال مليء بالحبوب. ما تحبه فعلاً هو أن تدخل السينما. لكنها لا تشاهد الفيلم.. تتأمل العيوب الغريبة في الصورة (مثل ذبابة لم يرها أحد)، وتستدير لتراقب وجوه الناس الشاخصين للشاشة كأنهم يحلمون... ثم تشتاط غيظا من الأفلام التي يقود فيها البطل السيارة ويتبادل الحوار مع البطلة ولا ينظر للطريق أبدًا، بالطبع لأن الصورة خلفه هي عرض على شاشة (باك بروجكشن) وليس طريقًا حقيقيًا!

هناك حبكات فرعية كثيرة، لكن الحبكة الرئيسة هي عندما تجد الفتاة في مسكنها صندوقًا خشبيًا حفظ فيه طفل ذكرياته.. كل طفل فعل هذا يومًا ما وربما كنت أنت منهم. لقد أخفى هذا الطفل ذكرياته الثمينة جدًا التافهة جدًا

بالنسبة لنا، في هذا الصندوق.. ثم ترك الشقة وفيها جزء لا يستهان به من روحه.

هكذا عرفت إميلي أن هذا الصبي كان في شقتها منذ عقود... عليها أن تعيد له هذا الصندوق ليسترد سعادته التي فقدها في زحام الطريق..

أذكر أنني ابتعت في طفولتي بندقية جميلة جدًا من البلاستيك ولها سدادة فلينية محكمة، ولها زنبرك قوي. وما حدث هو أنها سقطت وراء خزانة الثياب العملاقة في بيتنا.. معنى هذا أنها ضاعت للأبد وبعد استعمال يوم واحد فقط!.. بكيت كما لم تبك أرامل الأساطير، ونمت تعسًا مثقل القلب.. كنت في التاسعة وقتها. في سن الثلاثين بدأت عملية الانتقال من داري، وجاء النجار ليفكك هذه الخزانة العملاقة. هنا فوجئت بالبندقية تخرج لي من وراء الخزانة، مغطاة بالغبار ونسيج العناكب، كأنها لغم ينفجر في بحر الذكريات.. وجف قلبي.. وشعرت وأنا ألمسها بذات شعوري في يوم الجمعة ذاك منذ ٢١ عامًا. ولولا أنني تماسكت لرحت أركض بها في الشقة، ولرحت أصوب على النجار محدثًا أصواتًا مضحكة بفمي... على فكرة ضاعت مني ثانية.. لو وجدتها فلتعدها لي لو سمحت..

الحق أنني في لحظات عديدة تمنيت لو يأتي لي شخص مجهول ويقدم لي هذه البندقية ويبتسم ويرحل..

قررت إميلي أن تكون هذا الشخص وانطلقت في مهمة هي محور الفيلم الرئيس. وبالفعل تنجح في إعادة الصندوق، وتراقب الرجل وهو يتفحص ذكرياته وينفجر في بكاء حار...

هكـذا عرفـت إميـلي طريقهـا في الحيـاة. قـررت أن تسـعد النـاس سرًا بعـشرات اللمسـات الصغـيرة... تسـعدهم بأشـياء لـم يعرفـوا أنهـم يحبونهـا لهـذا الحـد..

وسـط هـذه الرحلـة تقابـل جارهـا الرسـام الـذي يقـضي وقتـه في رسـم لوحـة شـهيرة لرينـوار (غـداء عـلى قـارب) بـلا توقـف. وهـو نمـوذج انعـزالي فريـد هـو الآخـر لأنـه مصـاب بمـرض هشاشـة العظـام الـذي يجعـل أي تعامـل لـه مـع العالـم الخارجـي يهشـمه.

تنجـح إميـلي في توفيـق رأسي زميلتهـا العصابيـة شـبه المجنونـة في المقهـى، مـع زبـون خجـول عصـبي بـدوره. تدافـع عـن صـبي البقـال البديـن الأبلـه الـذي يتحـرش بـه بائـع الخـضر... تقنـع الزوجـات الـلاتي هجرهـن أزواجهـن أن الأزواج تركـوا رسـائل حـب حـارة قبـل الرحيـل. رسـائل تكتبهـا هـي بنفسـها طبعًـا..

هذه هي اللحظة المناسبة لتقع في الحب..

مـن تحبـه إميـلي بـولان هـو مثلهـا بالضبـط: الشـاب المتوحـد المنطـوي الـذي يهـوي جمـع الصـور السـاقطة تحـت كبائـن التصويـر الـذاتي. أنـت تعـرف تلـك الكبائـن حيـث تدخـل وتغلـق السـتار عـلى نفسـك ثـم تدفـع مـالاً وتنظـر في المـرآة، لتخـرج لـك أربـع صـور هـي القبـح المجسـم. النتيجـة أنـك تتخلـص مـن هـذه الصـور وتلقيهـا عـلى الأرض أو تمزقهـا. نينـو - حبيـب إميـلي - يهـوى جمـع هـذه الصـور في ألبـوم خـاص نـادر.

مـن الصعـب عـلى إميـلي أن تبـدأ علاقـة مـع خجلهـا الشـديد جـدًا، لكـن جارهـا الرسـام يسـاعدها، وهكـذا تبـدأ قصـة حـب

حقيقيـة وغضـة.. ونحـن نعـرف أنهـا سـتنجح لأن عنـوان الفيلـم يتحـدث عـن المصـير الرائـع لأميـلي بـولان.

أفسحوا الطريق للجمال.. للدانتيلا.. للعذوبة والشعر..

أفسـحوا الطريـق للذائـذ الحيـاة البسـيطة العابـرة الـتي لا يمكـن وصفها..

لا تفـوت فرصـة مشـاهدة هـذا الفيلـم لـو أتيحـت لـك.. فهـو – الفيلـم نفسـه – مـن لذائـذ الحيـاة الصغـيرة شـديدة الأهميـة...

تان تان

تفاصيل كهذه هي التي تصنعنا.. مساء الشتاء البارد والنوم مبكرًا، ثم الاستيقاظ في طور السِنّة، غير مدرك هل أنت تحلم أم أنك متيقظ، فقط لتنطبع القبلة على جبيني الدافئ وتلمس أرنبة أنف أبي الباردة وجهي، ثم أجد مجلة (تان تان) في يدي.. لقد ابتاعها وهو عائد من العمل، وهذا يعني أننا كنا في مساء السبت. أنام والمجلة في يدي على الوسادة.. رائحة الحبر الملون والورق العطرة.. لو أنصفوا لقطروا هذه الرائحة في زجاجات وباعوها بأغلى الأثمان. لم توجد قط مجلة لها هذه الرائحة مهما بحثت، ولا أعرف السبب.. هل كان أنفي أقوى أم كانت مطابع الأهرام تستعمل أحبارًا مختلفة؟.. لم أجد قط هذا السحر للورق القديم الرخيص في كل ما قرأته بعد ذلك من مجلات صقيلة فاخرة الطباعة..

فقط عند ظهر الأحد بعد العودة من المدرسة كان بوسعي أن أفتح الصفحات، وأغرق في عالم غريب بعيد : (ريك هوشيه) ومغامراته في تلك القرية الفرنسية، و(مارتان ميلان) والشحنة الغامضة التي ينقلها لوسط أفريقيا، و(سيمون النهر) الذي يخطو لعالم آخر من عوالم ما بعد المحرقة..

(تان تان).. عندما يحتشد أعظم الفنانين الأوروبيين لتقديم الكلمة العليا في فن الشرائط المصورة، وهم يعرفون أنهم يواجهون الوحش الأمريكي الثري القابع عبر المحيط

الأطلنطي.. الوحش الذي صنع ميكي ودنالد داك والرجل الوطواط وسوبرمان والرجل العنكبوت. لسبب ما لم أكن مولعًا جدًا بالأبطال الجبابرة الذين يضعون أقنعة ويطيرون، لكنني وقعت في غرام دونالد داك كأي واحد آخر..

جاءت تان تان لتعزف بالضبط على النغمة المناسبة لروحي، وأعتقد أن هناك جيلاً كاملاً يدعى (جيل تان تان).. كانت المجلة فاخرة الطباعة بمقاييس السبعينات، وكانت باهظة الثمن.. عشرة قروش لم تكن زهيدة بينما أغلى مجلة أطفال لا يتجاوز ثمنها ثلاثة قروش.. لهذا خضت معارك دائمة لأبرهن لأهلي على أن التضحية تستحق. أبي فقط كان يعرف أهمية هذه المجلة لي، بينما كانت أمي ترى أن هذا هراء وأن عشرة قروش يمكنها أن تشتري عشرات الأشياء الأكثر أهمية.

(تان تان) المجلة البلجيكية التي ينشرها (لومبارد)، والتي كانت الثقب الذي نفذت منه الثقافة الفرانكفونية لنا. بطل المجلة الذي أعطاها اسمه هو الصحفي الشاب (تان تان) وصديقه القبطان (هادوك)، والتي رسمها الفنان (ريمي هيرجيه) وكانت قصصه ممتعة لكنها نادرة جدًا.

أعظم فنان عرفته تان تان في رأيي هو (هيرمان) الذي تعاون غالبًا مع المؤلف (جريج)، فقدّما شخصية راعي البقر (رد داست). (رد داست) راعي البقر الوحيد ذو الماضي الغامض الذي يوحي بأنه تورط في أشياء كثيرة لا نعرفها، لكنه – كالعادة – رام بارع جدًا. لقد قرر رد داست أن يعيش حياة شبه هادئة في مزرعة (٦٦٦) التي تديرها الحسناء (كومانشي)، التي يمكن بشيء من الخيال أن نتخيل أنها (ساندرا بولوك).

يذهلك ما قام به الرسام مع كاتب السيناريو لتحويل الرسوم إلى ما يشبه الفيلم السينمائي حتى أنك لتسمع الصراخ وصوت الطلقات.. الفنان المبدع (فواز) قال لي ذات مرة وهو يضرب كفًا بكف: «الرسام المجنون رسم دلو ماء يُقذف في عدسة الكاميرا بحيث صارت هناك قطرات توشك على لمس العدسة!.. بل إنه يرسم لعاب الخيول الهائجة وهو يتطاير نحوك!». أذكر المشهد البانورامي الرهيب لمدينة (لارامي) التي تعج بالمتسكعين في ضوء الغروب الأحمر. وماذا عن المواجهة الأخيرة في زقاق مظلم بين (رد داست) و(روس دوبز) حيث تلعب الظلال والصمت دورًا مخيفًا.. هل قلت (الصمت)؟.. نعم..

نفس الرسام يقدم لنا شخصية (برنار برانس) قبطان اليخت الذي يجوب العالم. الرسام لا يريد أن يسهل المهمة على نفسه لذا لابد من مؤثرات مرهقة في كل قصة.. هناك حريق وهناك عواصف رملية وهناك ثلوج وهناك مملكة بعوض.. هناك قصة تدور في صحراء حارقة بأمريكا الجنوبية حيث الشمس توشك على أن تحرقك أنت فلا تقدر على فتح عينيك.. لا عجب أن فنانًا مصريًا دأب على استنساخ رسوم (هيرمان) هذا استنساخًا، ولا عجب أن د. نبيل فاروق يعتبر (جريج) أديبًا عالميًا.. أي إنه ليس مجرد كاتب سيناريو.

هؤلاء الرسامون مولعون بالتحدي وركوب الصعب.. هناك رسام تخصص في رسم المستقبليات، وقصص (داني المستقبل) و(راي) حيث لا يوجد ملليمتر واحد من الصفحة بلا زخرفة معقدة جدًا..

الفنان (لوكلير) الذي تخصص في قصص (سيمون النهر) يعبر بالتحدي آفاقًا أخرى، وفي بداية قصة من قصص (سيمون النهر) نرى ذلك الشريد الجوال على ظهر حصانه يقترب من الكاميرا تحت السيول.. اقرب.. فأقرب.. وللمزيد من التأثير السينمائي يقدم لك نوتة موسيقية للحن المصاحب لهذا المشهد!. هذه قصص عالية المستوى وسيناريوهاتها ناضجة جدًا زاخرة بالمحتوى الإنساني. هناك لقطة لا تنسى للفارس إذ يبتعد عن موقع مذبحة تعرض لها الغجر الرحالة في ذلك العصر.. مشهد أعتقد أنه احتاج لأسبوع كامل في رسمه مع التكوين السينمائي الواضح. وفي مشهد آخر ترى الطائرة تحلق فوق رأسه قادمة ثم تغيب في الأفق في لقطتين تعادلان ذات التأثير السينمائي المعروف. قارن هذا المستوى من الرسم والسيناريو بالأبطال الأمريكيين الشبيهين بالثيران بثيابهم المطاطة وعضلاتهم المبالغ فيها، وهم يهددون: «سأذيقك الويل أيها الرجل العنكبوت!».. الخ.. عندها تكتشف أن هناك فارق مستوى لا يوصف بين الستريبس الأمريكية والأوروبية لصالح الأخيرة طبعًا. الأمريكان محترفون ويعرفون ما يخلب لب القارئ، لكن الأوروبيين يعملون بحب شديد ودقة..

مارتان ميلان الطيار قوي البنية العصبي الذي يكره الكلام المفرط.. هناك قصة غيرت الكثير من حياتي عن صداقته لفتى اسمه (جيروم)، وصداقة خالدة انتهت عندما قرر (جيروم) أن يزوّر شهادة طيران ليظل مع صاحبه للأبد.. ينام مارتان ميلان ليصحو على طرقات على زجاج الطائرة.. إنه جيروم ينزف دمًا وهناك طابور من الموتى ينتظرون حتى ينهي كلامه.. يقول جيروم لمارتان ألا يحزن عليه وألا يحمل نفسه

المسئولية، ثم يلحق بركب الراحلين وسط السحاب.. ويفيق مارتان من نومه ليعرف أن جيروم قد مات عندما جرب قيادة طائرة وهو غير مؤهل. قل لي بربك: هل هذه قصة أطفال أم هي عمل من روائع الأدب العالمي؟. رحلة مارتان مع طفل صغير يبحث عن أبيه في غابات الأمازون، ورحلته مع شاب يعيد للأدغال اللبؤة الصغيرة التي رباها من صغره وكانت أول حب له... سوف تبكي وأنت ترى اللبؤة تتخلى عن جُبنها لتمزق ثورًا هائجًا كاد يقتل الفتى...

رحلة لا توصف بين الأزمان والبلدان.. مع تان تان عشت في عصر الغال ومع الرومان وأيام الحرب العالمية وأيام تحريم الخمور في أمريكا.. سافرت لبلدان قصية جدًا في الشرق حيث رأيت حانات قذرة لا يجسر أحد على دخولها، وعشت مع الهنود الحمر، وذهبت للهند لأواجه جيوش المغول مع (كورانتان).. هبطت على القمر مع (دان كوبر) ثم مضيت في شوارع اليابان لأزور مسرح (النو) مع (مورتيمر).. عشت في عصور ما قبل التاريخ القاسية مع (تونجا) وعشت في أزمنة مستقبلية غير محددة مع (داني المستقبل).. عشت في الريف الإنجليزي مع سادته المتحفظين ومفتشي سكوتلانديارد المتقاعدين.. وخضت حروبًا كثيرة في العصور الوسطى...

يخيل لي أن هذه المجلة ارتادت كل الأفكار الممكنة وأن كل فكرة قد سبق أن نشرت هناك..

صحيح أن كلمة (يتبع) في نهاية القصة كانت تثير جنوني.. عليك الانتظار أسبوعًا هو الدهر ذاته حتى تعرف ما حدث.. لكنك في النهاية تقدر على جمع أعداد القصة كلها وقراءتها

كاملـة..

جـاء اليـوم المفجـع الـذي أعلنـت فيـه المجلـة أنهـا سـتتوقف.. لقـد انتهـى ضـخ الأحـلام لأن السـوق العربيـة قـد أغلقـت بعـد (كامـب ديفيـد). توقفـت المجلـة ثـم ظهـرت في محاولـة خجـول بـلا ألـوان وبسـعر فـادح لا يمكـن تصديقـه (أربعـون قرشًـا)، ثـم توقفـت نهائيًـا بعـد ذلـك..

كنـا نحـن جيـل تـان تـان بـلا مـراء، ولا شـك في أن أي سـيناريو قصـص مصـورة كتبتـه في حيـاتي يحمـل بصمـة منهـا. أمـا عـن التهمـة الدائمـة لهـا بأنهـا خنجـر الثقافـة الفرانكفونيـة المصـوب لصدورنـا، فـرأيي أنهـا كانـت تمـر عـبر مرشـح مـصري مخلـص اسـمه (الأهـرام) حيـث يتـم اسـتبعاد القصـص غـير المناسـبة لثقافتنـا، ولا أذكـر أن أي جاسـوس قبـض عليـه كان مـن قـراء تـان تـان. تذكر أن القيـم الأمريكيـة تمـلأ مجـلات ميـكي وسـوبرمان وسـبايدرمان.. تذكـر أنـه لا توجـد علاقـة أبـوة بـين أي مـن أبطـال ميـكي، وتذكر أن دونالـد داك لا يكـف عـن محاولـة مواعـدة (ديـزي) البطـة الفاتنـة..

كانـت تـان تـان نافـذة فتحـت لنطـل منهـا عـلى مـا يفكـر فيـه العالـم، ولا أرى أن هـذه النافـذة كانـت مـضرة بـأي شـكل، لكـن هنـاك دلائـل عـدة توحـي لي بأنهـا بعيـدة تمامًـا عـن ذوق شـباب اليـوم، وقـد فشـلت عـدة محـاولات لإحيائهـا.. ربمـا تغـير الشـباب أو ربمـا التجربـة لـم تأخـذ فرصتهـا الكاملـة.. لا ادري.. لكـني أعـرف أنـني أقتنـي كل عـدد صـدر مـن هـذه المجلـة، وأعـرف كذلـك أنهـا لـو عـادت للصـدور اليـوم لعـدت لشرائهـا بـلا تـردد لأنهـا جـزء حقيقـي بالـغ الأهميـة مـن ذاتي.

الفهرس

أين ذهب الجميع؟ 5
رمضان جانا 13
حارس البوابة 21
قصة مرعبة 31
أماركورد 41
مرحبًا بكم فى شيرك(أبوشقة) 51
خداع النفس فن 59
قرب الجبل امرأة مرحة 69
Mekarrenn Mefarrenn 75
تاريخ للكبار فقط 81
كائنات مهددة بالانقراض 87
لا تقرأ هذا المقال 93
مقال مثير للغرائز 97
مقالات نقدية 103
بحب السيما 105
أنفكتوس: أنا قبطان سفينة روحي 115
711 121
إميلي: عشق التفاصيل الصغيرة 127
تان تان 135

في **كيان للنشر والتوزيع**، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتَّابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائمًا نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الابداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب **تراسلنا**، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش. ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com
info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235688678- 0235611772**

هاتف محمول: **01001872290/ 01005248794 / 01000405450**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتَّبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpublishing

+KayanPublishing

KayanPublishing